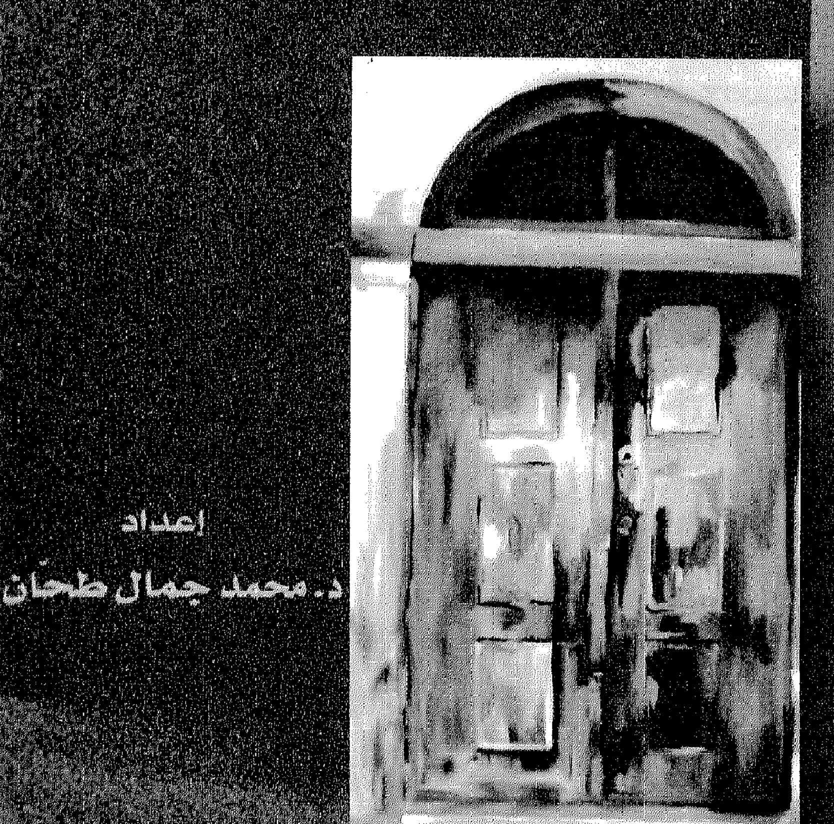
موسوعة الحضارة الإنسانية

١

أفكار غيّرت العالم

تاريخ الحضارة عبر أعلامها



إعداد

د. محمد جمال طحّان



أفكار غيّرت العالم

* أفكار غيّرت العالم

(تاريخ الحضارة عبر أعلامها)

*** د. محمد جمال طحّان**

* الطبعة الأولى 2001

* الناشر : الأوائل للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق – ص.ب 3397 هـ 2248255

عنوان المؤلف :

حلب – ص . ب 8997

هـ 2276085

أفكار غيّرت العالم

- تاريخ الحضارة عبر أعلامها -

إعداد

الدكتور محمد جمال طحّان



الإهــــداء

إلى ...

ثائر ...

رؤى ...

رواد ...

نــــور ...

وأمّهــــم ...

الذين صبروا فأنجزت.



هذا الكتاب

تقديم ينجزه القارئ



مقدّمة



مقدّمــــة

يرصد الكتاب أهمَّ الأفكار والنظريّات العلميــــة والأدبيــــة والفنيّة التي كان لها دور رئيس في تغيير نظرتنا إلى العالم، أو في تغيير أسلوبنا في التعامل معه.

وهنا نتساءل معك عزيزي القارئ : هل – حقّاً – تبقـــى الأفكار تحومُ في الهواء دون أن يعبأ بها أحــــد، كمــا يظــنُّ بعضُ الناس، أم أنّ للأفكار فاعليةً لايمكن التغـــاضي عنـــها حتى ولو أنكر الناسُ ذلك؟

وسرعان مايتّضح الجوابُ حين نعلم أن بعضَ الأفكـــار بقيت في إطار وجهات النظر التي لم تجد من العلمـــاء مـــن يؤيّدها ويحاول تمحيصها على محكّ الواقع، وبعضها لم يكن يستحق هذا العناء ...

لكنَّ هناك أفكاراً حصلت على جواز ســفر لتنتقــل مــن شاطئ النظر إلى ضفّة العمل، واستطاعت أن تغيِّر العالمَ من حولنا، وتبدّل نظرتّنا إليه وإلى أنفسنا فيه.

وهي بالذات تلك التي نحاول أن نتذكَّرَ بعضَ تفاصيلــــها في كتابنا، الذي يحاول إضاءة نقاط التحوّل التي أثّــرت فـــي

تبدّل شكل الحياة وأساليب العيش فيها، وأثرتها بأفكار وعادات وأعراف جديدة كانت نتيجة طبيعية للمعارف المتصاعدة التي أدّت إلى تطوّر العلوم والفنون والآداب عاكسة هذا التطـــوّر الجديد بدرجات مختلفة.

* * *

لاشك أنك تعلم عزيزي القارئ أن التغيّرَ ليـــس عمليـــة ميكانيكية أحادية الجانب، إنه عملية معقّدة تتشابك فيها عوامل كثيرة لايمكن رصدها إلاّ عبر دراسة تفصيلية ومتابعة دقيقة تقدّم نظرة شاملة للعالم، نرأف بك عن متابعتـــها ... ولعـــل كتابنا الذي هو في الأصل برنامج إذاعي حاولت حلقاته القيام بهذه المهمة بشكل غير مباشر تاركـــة للســـادة المســـتمعين استخلاص النتائج من خلال طريقة عرض الأفكار التي كان لها دور حاسم في تغيير العالم.

* * *

لقد ظنّ الناس قديماً أن الأرض هي محور الكـــون، وأن الشمسَ تدور حولها، ثم تبيّن لهم أن الأرض ليســـت مركـــز العالم، وأنها تدور.

فهل الكون هو مانعرفه عنه، أم أننا لانعرف إلاّ القليل؟

* * *

نحن لسنا مانعلم، ولكن كلّما زادت معارفنا نصبح غير مانحن عليه الآن.. إننا – بعد معرفتنا – أكثر منّا قبلها .

لذلك ليست معرفة الأفكار المفصلية العظيمة في تاريخ البشرية شيئاً يمكن أن يُصنّف تحت بند أن المرء يحشر أنفه في مالا يعنيه، وذلك لأننا ننعم بكثير من المكتسبات التي كانت نتيجة مباشرة لتلك الأفكار، وبالمقابل، فإننا نعاني من ويلات كثيرة هي بمنزلة ضرائب ندفعها نتيجة التطوّر الحاصل.

لقد مرّ برج الحضارة بمراحل كثيرة، ساهمت بعضُ الأفكار في شموخه وارتفاعه، وتعرّض إلى هزّات هدّدت بهدمه، كما التقى بهندسات ناشزة جعلت بعض شرفاته نتوءاتٍ تشوّه وجه الحضارة وتدل على الخلل الحاصل فيها .

ومن ذلك ماقعله رجال الكنيسة الأوروبية في مطلع عصر النهضة .. أو كما فعل ميكافيلي أو هتلر وغيرهم. وإلى الآن، تحافظ الحضارة الإنسانية الراهنة على برجها من الانهيار كي لاتتبع الحضارات المندثرة.

ولعلّها تفلح في ذلك إذا سادت أفكار تعلي من شأن القيم، وتقنع الدول العظمى بإبطال مفعول الشيطان الذرّي الذي تحاول – بوساطته – أن تتحكّم بمصير العالم.

ولعلّنا نستخلص من خلال الكتاب أن الأفكـــار العظيمـــة والنظريات العلمية هي مكتسبات إنسانيّة لا هويّة لها، بدليـــل أن أصحابــها مختلفــو الجنســيات والمشــارب والأديـــان والانتماءات، انطلقوا من محيطهم الضيّق إلى العالم الرحـــب حيث عمّت أفكارهم ونظرياتهم العالم، مجتازة كلّ الحدود.

عزيزي القارئ لقد حاول البرنامج أن يقدّم الأفكـــار بشكل مبسّط لا ينفر منه المستمع غير المختص، بل يحضّـــه الفضول لاكتشاف المزيد، كما نحاول عرضه بجمل مكثّفة لا يملّ المختص من قراءتها وإن كانت لا تقدّم له أي جديد، من حيث الأفكار التي برزت عند المفكريـــن ، و إنمـــا قُدمـــت بأسلوب مختلف ، و عبر تسلسل زمني يعتمـــد تـــاريخ ولادة المفكرين الذين يردون فيه . و من دون النظر إلى تصنيفاتهم في كتب أخرى إلى فكر غربي و آخر شرقي و ثالث عربي . و إنما نظن أن الحضارة ميراث إنســـاني يــرث معطياتـــها اللاحق عن السابق من دون أن نأخذ بالاعتبار هوية الوارث أو المورث .

ونحن لا نطمح في كتابنا هذا أن نغير التاريخ ، بـــل جلّ ما نأمله أنكم عندما يقع بين أيديكم ، أن تقرؤوه بإمعان ، وأن يحفزكم على مزيد من التفكير دون أن تملّوه حتى ينتهي.

الزراعة

كان الإنسان القديم منذ عشرة آلاف سنة مضطراً إلى الاكتفاء بجمع الثمار التي تنتجها الطبيعة، فيقضي أيامه بالتقاط الفواكه والجوز والحبوب البريّة، ثم تعلّم غرس بعض البذور في التربة، ليحصل على غلّة إضافيّة. وهكذا تمّ ابتكار الزراعة التي تعدّ أهم ما أنجزه الإنسان على مرّ العصور. وبدأ يعرف النباتات السامة ويستبعدها ليغرس البذور الصالحة للأكل مستعيناً على ذلك بعصا الحَفر التي يستخدمها أيضاً في جني المحصول، ومنذ ذلك الوقت بدأ يوفّر من الطعام ما يفيض عن حاجته.

* * *

غير أن ثورة العصر الحجري تجاوزت ابتكار الزراعة إلى اختراعات أخرى متوالية رفعت مستوى أداء الفِلاحة، وزادت المحصول. فقد اخترع آلات حرث التربة وجني المحصول وأساليب تخزين الثمار وطرائق الطهو.

وقد احتاج القمح والشعير إلى فصلهما عـــن القشــور بالدرس والتذرية ثم طحنهما دقيقاً بواسطة هاون أو بواســطة الرحى، وهو يد حجرية على هيئة قرص الشمس يتــم حــك الحبوب بها بشدة حتى تصبح دقيقاً. ثم ابتدع الإنسان تحويــل الدقيق إلى رقائق، ثم استخدم الخميرة بطريقة تثير الإعجاب ليحوّله إلى رغيف ينتفخ بعد طهيه داخل تنّور خاص ابتدعه لهذه الغايـــــة .

* * *

وإذا كان الرجل قد اختصّ بالصيد ، ثم تحوّل إلى راعٍ حين بدأ باستئناس الحيوان للسيطرة عليه، فقد كانت الزراعة من مهامّ المرأة التي راحت تضيف الخمـــيرة إلـــى عصــير الحبوب والعنب ممّا أدّى إلى صناعة الجعة والخمر التي كان الكهنة في الرافدين ومصر القديمة يشربونها ويقدّمونها قرابين إلى الآلهة من أجل إنتاج وفير.

ومع قدوم الألفية الثالثة قبل الميلاد عمــت المســكرات أوروبا وآسيا الصغرى واستلزم ذلك صنع الأواني والدنـــان.

وأكّدت الاكتشافات الحديثة في ســـورية علـــى أهميَّـــة منطقة حلب ووادي الفرات الأوسط الذي لعب دوراً في أكبر ثورة عرفتها البشرية، خلالها تحوّل الإنسان من كائن يعيــش

ضيفاً على الطبيعة بالتقاط ثمار الأرض والصيد، إلى كـائن بدأ ينتج قوته، وذلك عندما اكتشف الزراعة وطرائق تدجين الحيوان، وقد ترافق هذا التغيّر المادي بتغيّر فكري سمح برؤية هذا العالم رؤية جديدة تتميّز بثورة في الرموز والقيم والأفكار.

* * *

وفي الكتابة التصويريّة المصرية (الهيروغليفية) نجد قدماء المصريين يرمزون للبيت بالأم، ليس لأن المرأة تلد الأجنة وحسب، بل لأنها أيضاً تمكّن أبناءها من العيش وذلك من خلال قيامها بمهام الزراعة. ولذلك صوّرت المرأة على أنها مصدر الخصب ومصدر الحياة. وكانت الآلهة الكبرى عند الشعوب الزراعية من اللواتي يحيين الأرض بعد موتها فتزهر وتثمر وهكذا اتّخذ القدماء في بلاد مابين النهرين الربّات الأمهات تيامات ونهور ساج وعشتار، كما اتّخذ المصريون ايزيس.

وما زالت خصوبة الأرض في المجتمعات الزراعية إلى يومنا هذا مقترنة بخصوبة النساء ، وكثيرون يعتقدون أنه ينبغي أن تقوم النساء بزراعة القمح لأن النساء يعرفن كيف

ينجبن الأطفال. كما يعتقدون أن الزوجة العاقر مؤذية للحديقة.

*   *   *

ولكنّ الانقلاب الذي حدث بعد ذلك، كان بسبب اهتداء الرجال إلى تسخير الثيران في حرث حقول شاسعة، في حين كانت النساء يكتفين بزراعة بقع صغيرة وحسب. وهكذا دخل الحيوان في مجال الزراعة، وبرز دور الرجل بوصفه صاحب الدور الأول في العناية بالزراعة، بالإضافة إلى عنايته بالحيوان، فبرز الأرباب بدلاً من الربّات وغدت الآلهة المقترنة بالزراعة مذكّرة مثل اوزوريس في مصر وباخوس في اليونان.

وحين توسّع الرجال في القيام بالأعمال المهمة، فرضوا أنفسهم في المجتمع وهيمنوا على المدن المتنامية وعدّلوا الثقافة على صورتهم فقام الأرباب مكان الربات.

وهكذا نشأت المدن التي كانت ناتجاً ذكورياً، كما كانت القرية في العصر الحجري الحديث تعكس الخصائص الأنثوية.

كان ظهور الرموز الذكرية انعكاساً لسلطان الرجال فبدأ تكرار الخط المستقيم .. والمستطيل والبرج ... بدلاً من الأشكال المستديرة التي كانت من سمات القرى الأولى.

وقد خلق رجال المدن النظام الملكي، أما القرى فقد كانت تنتخب بعض الرجال لفترة مؤقتة، ولهذا كانت تتسم بالديمقراطية.

* * *

ويبدو أن تأثير المحراث لم يقتصر على تمكين الملوك من التحكم في المدن، بل امتد تأثيره ليشمل الأسرة حيث فرض الآباء إرادتهم.

وانفرد الرجال بالزراعة وبالحِرف الأخرى، واخترعوا عجلة أبدت فاعليتها في صناعة القدور، وجعلوا الأسرة لا عشيرة المرأة هي الأساس للتنظيم الاجتماعي.

وبدأ الرجال يسنّون قوانين تؤكد سلطانهم وتضفي عليه الشرعية. ومن أقدم المدونات القانونية قوانين الملك حمورابي ملك بابل في بلاد ما بين النهرين. الذين دُوّن حوالي /١٧٥٠/ ق.م.

وبموجب تلك القوانين، كان بوسع الزوج أن يقدّم زوجته لدائنيه ضماناً لديونه، ولم يكن القانون يرغمه على

إيفاء ديونه، مادامت الزوجة ضماناً لتلك الديون. وقد أصبح نظام الاستدانة بضمانة الزوجة نظاماً مربحاً للغاية في تجارة الرقيق .

* * *

وشواهد القبور التي كان يشيدها الأزواج الرومان الورعون لزوجاتهم تُظهر كيف كان الرجال ينظرون إليهن : " كانت تحب زوجها ... أنجبت ولدين ... لقد حافظت على البيت ورعته ... ونسجت الصوف ... " هكذا كانت تذكر النساء في العصر الحجري الحديث.

بوادر التفكير في بابل ومصر

في أواسط الألف الأوّل قبل الميلاد، ظهر في الــــهند القديمة كتاب (الفيدا)، أي كتاب المعارف، وهو مؤلَّف ديني يضمّ عدداً من الآراء والأفكار الفلسفية عن الإنسان والأخلاق والعالم.

وبقي (الفيدا) كتاباً مقدّساً حتى ظهور (الجاينية) في القرن السادس قبل الميلاد، وتهدف التعاليم الأخلاقية للجاينية وتعني (المنتصرون) ، تهدف إلى تبيين السبل إلـــى انعتـــاق الروح الإنسانية من الشهوات الجامحة التي يســـبّبها الجـــهل بالحياة . إن السبب الرئيسي في تبعية الــــروح يعــود إلـــى انقيادها للرغبات والشهوات الجامحة بسبب الجهل بالحيـــاة.

لذلك لابد من المعرفة التي –وحدها– تستطيع تحرير الروح من أسر المادة. أما شرط المعرفة الحقّة فيقوم علـــــى الثقـــة بشخص المعلم، وفي السلوك القويم وذلك لايتم إلاّ بالزهــد.

* * *

بعد ذلك ظهرت الديانة البوذية بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، وتركّزت أهم موضوعاتها على أن : الحياة ملأى بالعذاب والألم ، وأن هناك أسباباً لظهور العذاب، وهناك إمكانية لوقف العذاب.

فكان هدف المعرفة لديها هو تخليص الإنسان من ألمه وعذابه. ويطلق البوذيون على حالة الخلاص من العذاب اسم (النرفانا) أي (الانطفاء) وهي حالة انعتاق من كل مايجلب الألم والعذاب.

* * *

تلا البوذية انتشار اليوغا وتعني تأمّل الذات أو التركيز عليها. يرى أصحابها أن الإيمان بالله شرط ضروري للنجاح في العمل الذي يهدف إلى تخلّص الإنسان من العذاب.

والخلاص لايكون إلاّ بالزهد وبالتمسّك بالمبادئ الأخلاقية السامية. وفي سبيل ذلك ابتدعت اليوغا رياضة تساعد الإنسان على تنظيف فكره من أدران العالم الخارجي، وذلك بالتوجّه إلى الذات والتحرّر من قيود العالم. وقد أثبت العلم الحديث أهميّة رياضة اليوغا وتمارينها ونظامها الغذائي.

* * *

و نحن لا نريد التوسّع في الأفكار التي نطرحها هنا، وإنّما نعرض لها بسرعة تمهيداً للاكتشافات العلمية اللاحقة التي يحلو للغرب تصويرها على أنها من فعل عقل غربي بدأ من اليونان، وبدأ من فراغ .

بالتساوق النسبي مع الفكر الهندي نرى هناك تطوراً كبيراً سبق التفكير اليوناني وكان مصدره بابل ومصر .

في بابل ومصر تطلّب تطوّر الزراعة توسيع دائرة المعرفة لاستخدامها عمليّاً . ومن أجل حساب منسوب مياه النيل تطوّر علم الفلك عند المصريين.

ووضع البابليون أسس الجبر والهندسة، وصاغوا تقويماً يعتمد على رصد حركة الشمس والقمر والنجوم، واخترعوا النظام الستيني في الحسابات، مايزال مستعملاً حتى الآن ، وهو تقسيم الساعة إلى ستين دقيقة، والدقيقة إلى ستين ثانية. هذا في الألف الثالثة قبل الميلاد.

* * *

وتشير طرق الحساب التي كانت تُعلّم في مصر إلى المستوى العالمي الذي بلغته المعرفة في بلاد وادي النيل ، حيث حدّد المصريون طول السنة بـ ٣٦٥ يوماً وربع اليوم، كما أحرزوا نجاحات هامّة في مجال الرياضيات.

والآثار الأدبية الفرعونية ترى أن الكائنات الحية تتولد من الماء البارد، وأن الهواء يملأ الفراغ ويحضر في الأشياء كلّها ... وهذا ماتعلّمه الفيلسوف اليوناني طاليس عن قدماء المصريين والبابليين، فافترض أن الماء أصل الأشياء وعلّتها ...

* * *

وفي الصين برزت تعاليم كونفوشيوس وأكّدت المدرسة الكونفوشية أن القدر يحكم حياة الناس، وأن الناس يتمايزون من خلال تربيتهم، وكي نعرف الجديد لابد من دراسة القديم.

وأحد أتباع كونفوشيوس يرى أن الإنسان خيّر بطبيعته، تلازمه منذ الولادة خصال أربع هي : التألّم لآلام الآخرين، والشعور بالخجل ، والتواضع ، والقدرة على التمييز بين الحق والباطل. وأن التأثير السّيء للمجتمع هو الذي يفسد هذه الخصال.

* * *

وهكذا نجد أنّ الحضارة اليونانية متأخرة بالقياس إلى حضارة مصر وبلاد مابين النهرين .

كان المصريون مزارعين لذلك حاولوا التوصّل إلى أكبر قدر من المعارف الفلكية التي تساعدهم على التنبؤ بفيضان النيل، واستحدث الكهنة طريقة الكتابة بالصور.

أما في بلاد مابين النهرين فقد كان السومريون الذين اشتهروا بالكتابة المسمارية، ثم تلتهم الإمبراطوريات السامية الكبرى التي ركّزت جهدها على السعادة في هذا العالم، لذلك اعتنوا بتسجيل حركات النجوم وبممارسة السحر والتنجيم.

* * *

وقد استفاد الإغريق من بابل وإيران ومصر وفينيقيا بمجالات مختلفة منها الرياضيات والفلك والجغرافيا والقياس والتقويم.

وبين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ظهر مفكّرو اليونان واجتهدوا في البحث عن العلة الأولى للأشياء، فكيف فعلوا ذلك ..؟



اليونان

كانت (إيونا)، وهي مستعمرة يونانية تقـــع وســـط الساحل الغربي لآسيا الصغرى، ومنذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد، تعدّ المهد الأول للفلسفة.

وقد انتشر سكانها إلى جزر بحر إيجـــه المجـــاورة. وهناك ذاعت شهرة (هوميروس) الشاعر الذي تُنســـب إليـــه ملحمتا الإلياذة والأوديسة . والإنسان عند هوميروس مركّب من نفس وجسد، والجسد مكون من ماء وتراب ينحلّ إليـــهما بعد الموت، والنفس هواء لطيف ينطلق بالموت مـــن الجســـد محتفظاً بشعوره.

بعد هوميروس جاء (طاليس) أحد الحكماء الســـبعة الذين حاولوا إصلاح النظم والأخلاق. رحل إلى مصر وأخذ عن علمائها علم الهندسة، وخرج بنظرية تقول إن الماء هـــو الجوهر الأساسي في الكون... وأن الأشياء جميعاً جاءت من

الماء، ونُسب إليه قولُه أن للمغناطيس نفساً لأنّه يحرّك الحديد.

وروى القدماء عن طاليس قصصاً كثيرة ... فحين نعته أحد التجار بأنه رجل نظري لايفيده علمه في كسب المال، أظهر عبقريته العلمية وسيطر على تجارة زيت الزيتون، ومفاد تلك الحكاية أن معرفة طاليس بالأرصاد الجوية، دلّته مقدّماً على أن المحصول سيكون وفيراً، فاستأجر عدداً كبيراً من المعاصر، وعندما حان الوقت، أجّرها بالسعر الذي يريد، فربح بذلك مالاً وفيراً ، وأثبت للساخرين أن الفلاسفة بإمكانهم كسب المال الوفير حين يشاؤون.

وقد تنبأ طاليس بكسوف الشمس الكلي الذي وقع في ٢٨ أيار عام /٥٨٥ / ق.م وذلك بالاعتماد على معلوماته الفلكية التي أخذها عن الفينيقيين حول التناوب الدوري للكسوف.

* * *

وإذا عدنا إلى قول طاليس بأن العالم يتألف من الماء يتبيّن لنا الخيال الخصب الذي يتمتع به، وذلك لأن العلم الحديث بيّن لنا أن الماء يتولّد من الهيدروجين الذي يمكن

خلق جميع العناصر الأخرى منه. وهذا يذكّرنا بقوله تعالى في كتابه العزيز : " وجعلنا من الماء كلّ شيء حي".

ولا شك أن وجود المرء قريباً من البحر ييسّر عليه ملاحظة عملية تبخّر المياه بواسطة الشمس، وتجمّع بخار الماء على السطح لكي تكوّن سحباً تتحلّل مرة أخرى على صورة أمطار. ووفقاً لهذا الرأي تكون الأرض نوعاً من الماء المركّز .

* * *

أما عند (انكسيمندر) فقد كانت الأرض اسطوانة تطفو بلا قيود، نوجد نحن على وجه أحد طرفيها.

ويرى أن الإنسان يحتاج في صغره إلى فترة طويلة من الرعاية ، ولهذا فإنّه لم يكن كما هو عليه الآن، بل يرجع أصله إلى أسماك البحر، وأيّد ذلك الزعم بملاحظات عن حفريات باقية، كما أيّده بملاحظة الطريقة التي تُطعم بها أسماكُ القرش صغارَها.

لذلك ينصحنا (انكسيمندر) بالامتناع عن أكل الأسماك. فهل يبادلنا أخوتنا في أعماق البحار هذه المشاعر الرقيقة ؟

لاشك أن (هيمنغواي) لايؤيّد هذه الفكـرة ، وذلـك لأنّ بطله في رواية (العجوز والبحر) عانى الأمرّين وهـو يكافح للتغلب على عدوه الأوّل : أسماك القرش.

إذا انتقلنا إلى (فيثاغورس) ومدرسته نجد أنها قـد أدّت إلى ظـهور تـراث علمـي، وريـاضي علـى وجـه الخصوص، كما كان لاعتقادها بأهميـة الموسـيقا كعنصـر تطهيري الأثر البالغ فيما بعد.

لقد اكتشف فيثاغورس العلاقات العددية البسيطة لمـا نسمّيه الآن المسافات الموسيقية.

ومن المحتمل أن الكشوف في ميدان الموسـيقا هـي التي أدت إلى الفكرة الفيثاغورية القائلة بـأن الأشيـاء كلـها أعداد، وأننا، كي نفهم العالم، لابـد أن نعـرف العـدد فـي الأشياء.

* * *

وفي الهندسة اكتشف فيثاغورس النظرية المشـهورة القائلة أن المربع المقام على وتر المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع مربّعي الضلعين الآخرَين.

وهنا نجد مثلاً واضحاً لمنهج التعميم والبرهان، على عكـس القواعد العملية المكتسبة بالخبرة. ولفهم تلك النظرية كان لابد من إيجاد نظرية في الأعداد الصمّاء، وهي النظريـة التـي

وضعها فيثاغوريون متأخّرون، وتقول إحــدى الروايــات أنّ واحداً من أعضاء الجماعة الفيثاغورية قد أُغرق في البحـــر لأنّه باح بهذا السّر.

وحقيقة الأمر أن فيثاغورس لم يضع تلــك النظريــة التي ارتبطت باسمه، ولكنّه أخذ مبادئها من قدماء المصريين والبابليين الذين تلقّى علوم الهندسة على أياديهم.

إن الثورة الحضرية الكاملة وقعـــت حوالـــي عـــام (٣٥٠٠) قبل الميلاد في وديان بـــلاد مـــابين النـــهرين ذات الإمكانات الإنتاجية الكبيرة . فأقامت القرى الواســعة علـــى طول نهري دجلة والفرات ، ووضعت أنظمة للري . وتغـــيّر على هذا المستوى هو أهم تحوّل جرى في الحياة البشرية منذ اختراع الزراعة قبل ذلك بخمسة آلاف سنة .

وقد مهّدت سلسلة كاملة من الاختراعات التكنولوجية في المجتمع الزراعي الطريق للثورة الحضرية .

لقد تم تسخير قوة الثيران والريح والمحراث والعربة ذات العجلات والزورق ، بل اكتشــف الإنســان خصــائص المعادن ، وتعلّم صهر النحاس والبرونز .

وتتضح إنجازات الحضارات القديمة في الصـــروح الضخمة... الأهرامات والمعابد والتماثيل التي شيّــدت .

ولكن .. هل الحياة المدنية هي مجرد القـــدرة علـــى تشييد الصروح ؟



السفسطائيون

الحياة المدنيّة ليست مبانيَ ضخمة وحسب، بل إنّها تحتاج إلى قانون ينظّم حياة الناس ويمنحهم الأمان كي يفكّروا بالمستقبل، ويحاولوا تحقيق إنسانيتهم من خلال فرص الإبداع المتوافرة التي يضمنها التنوّع. وهذا التنوّع في الحياة المدنيّة المعقّدة تطلّب وسائل أخرى للتفاهم مما أدّى إلى اختراع الكتابة.

* * *

إنّ الحديث عن اختراع الكتابة وتنوّعها، والطباعة وتطوّرها، سيكون موضوع حلْقة قادمة، وما نريد إيضاحه الآن أنّ الكتابة كوّنت مايمكن تسميته بالذاكرة التي تُعين على تطوّر الحضارات وتقدّمها. فالكتابة هي التي جعلت الأجيال تتعاقب وتبدأ من حيث انتهى أسلافها، ولم تعد بحاجة إلى أن تبدأ من الصفر وهي تسعى للارتقاء بقواقعها المعيش.

إنّ الثقافة كانت شفويّة في الماضي، وهي تعتمد على ذاكرة بعض الكهول الذين كانوا يتناقلون الحكايات والخبرات

عبر الأجيال، وكانت الذاكرة الشفويّة تتغيّر تَبَعاً للناقل، ومـا يتمتع به من صفات. غير أنّ الكتابة خفّفت كثيراً مـن ثقـل الذاكرة، ولم يعد من مجال للشك في صحّة الخبر المنقول، أو المعلومة التي تصل، وذلك لأنّ الحروف المكتوبة تُبقي على النّص من غير تحريف أو تعديل، ولا يكون عرضةً لخيانـة الذاكرة.

لم يعد على الإنسان أن يحتفظ بكلّ شيء في ذاكرته، وإنّما استعاض عن ذلك بالورق الذي أصبـح يقـوم بـهذه المهمّة، وغدت المعرفة علماً بالتفسيرات المختلفـة، وقـدرةً على إدراك معاني الأشياء الداخليّة. وإدراك التنوّع هـذا أدّى إلى إمكان النقد والتحليل والتأليف.

وحقّق فنّ الكتابة قدراً أكبر من المرونة بعـد عـام /٢٠٠٠/ ق.م فكانت الكتابة المصرية التصويريـة، وكتابـة بلاد الرافدين المسمارية، لاتزالان المعيار الـذي يُتَّبـع فـي التجارة الدوليّة، والنماذج التي تُحتذى في الأسلوب التقليـدي. وقد نسخ الحثيّون وسكان كريت في عصر مينوس الأسـلوب التصويري. وبالتدريج ، حلّ نظامُ النطـق الصوتـي محـلَّ الكتابة التصويرية في الأعمال اليومية. والأنظمة الصوتية في

الكتابة أبسط، ورموزها أقل. وقد أفضى هذا إلى نظام متطوّر من التوريات البصريّة.

ولم يكتمل تطوّر الكتابة الصوتية حتّى عام /١٠٠٠/ ق.م، وهي لاتُستخدم في الصين حتى اليوم.

* * *

وهذا التحوّل فتح المجال الكتابي أمام عدد أكبر من الناس، بعد أن كان مقتصراً على الكهنة والكتبة، كما أدّى - أيضاً - إلى التنوّع في أساليب التفكير والابتكار.

وبذلك غدت الثقافة لاتقتصر على معرفة الأشياء وحفظها، بل أصبحت هي القدرة على التعبير عن وجهة النظر، والتمكّن من التوصّل إلى المعاني المتعدّدة للأشياء.

وهذا - بالتحديد - ماحدا بالسفسطائيين إلى المغالاة في تعدّد وجهات النظر.

* * *

بعد أن دحرت أثينا الفرس، نبغ فيها العلماء والشعراء والأطباء والصنّاع، وقويت الديمقراطية، وتعاظم التنافس بين الأفراد، فزادت أسباب النزاع أمام المحاكم، وشاع الجدل القضائي والسياسي. وهذه الحال أفرزت الحاجة إلى تعلُّمِ الخطابة وأساليب المحاجّة واستمالة الناس. ووجد فريق من

الموهوبين الفرصةَ سانحةً لاستغلال مواهبهم، فـــانقلبوا إلـــى معلّمي بيان.

وهكذا، في القرن الخامس قبل الميلاد، ظهر في أثينا مجموعةٌ من المعلّمين أُطلق عليهم اسم السوفسطائيين.

كانت الكلمة تشير - بالأصل - إلى المعلّم في فروع العلم المختلفة، بما في ذلك تعليم الصنعة أو المهنة النافعة. ثم تحوّل المعنى - بعد ذلك - إلى المغـــالطين ومعلّمـــي فـــن المغالطة. وذلك لأنّ السوفسطائيين هـــم أوّلُ مـــن احـــترف الحكمة وعلم البلاغة من أجل المنفعة الماديّـــة. ومنـــذ ذلـــك الوقت صار المعلّم يتقاضى أجراً على تعليمه.

وإذا كان سقراط قد عاب عليهم تقاضي الأجور عن التعليم، إلاّ أن محترفي الكلام يحتاجون - كغـــيرهم - إلـــى الأكل والملبس وقضاء احتياجاتهم. والأجر يشكّل نوعاً مـــن الحماية التي تتيح للمعلّم أن ينسى مشكلاتِه الماليّـــة.

* * *

توزّعت اهتمامات هؤلاء المعلّمين بين تعليـــم الأدب، والخطابة، والفصاحة، والبلاغة، وإدارة شـــؤون المجـــالس السياسية. كما كان هناك أيضاً معلّمون للجدل والنقاش، حيث

كان في استطاعتهم أن يعلّموا أصول الحجّة والإفحام في المحاكم لمن يريدون الدفاع عن أنفسهم أو عن سواهم.

أنكر السوفسطائيون إمكان معرفة الحقيقة، وهاجموا الفلسفة، وعارضوا المذاهب بعضها ببعض، وشكّكوا النّاسَ في العقل والحقّ، وألغوا الحدودَ التي يُعرف من خلالها الخيرُ من الشر، والعدلُ من الظلم، وقالوا بأنّه يمكن البرهانُ على الشيء وعلى نقيضه، وأمست المعرفة نسبية، والأخلاق نسبية، والخير نسبيّ.. وحلّت الخَطابة والألاعيبُ اللفظية محلَّ المنطق والتفكير العقلاني.

ومن أشهر السفسطائيين (بروتاغوراس) الذي عدّ الإنسانَ مقياسَ الأشياءِ جميعاً، وأنّ طريقَ المعرفة هو الإحساس الفردي، ولأنّ الاحساساتِ متغيّرةٌ فإنّ الحقيقةَ المطلقة لايمكن إدراكُها.

ومن هذه المقدّمة انطلق أساتذةُ الحكمة هؤلاء، يفكّرون، لا لإدراك الحقيقة، وإنّما ليمارسوا الدّعم المأجور لوجهات النظر، الكاذبة في أغلب الأحيان، ويتقاضوا على ذلك أجوراً باهظة. وقد كانوا على معرفةٍ واسعة بالحقوق والتشريع، فضلاً عن اطّلاعهم الواسع على أصول الجدل،

مما سمح لهم بإمكانيّة قلب الحجة الأضعف لتبدو وكأنّها هي الأقوى.

ومن طرائف الجدل السفسطائي نورد القصة الآتية :

* * *

كان بروتاغوراس مقتنعاً بأنّ طريقة تعليمه فعّالة إلى أقصى حد، ويثق بجدله إلى درجةٍ كبيرة، وبناءً على ذلك فقد اتّفق مع أحد تلاميذه الفقراء، أن يعلّمَه بدون مقابلٍ سريع، لكنّه اشترط عليه أن يتقاضى منه كامل أجور أوّل قضيّة يترافع فيها أمام المحاكم ويكسبها. ورضي المتعلّم بهذا الشرط مضطرّاً. غير أنّ الشاب، بعد أن استكمل تدريبه، وغدا بارعاً في الخطابة والجدل، وفي مقارعة الحجّة بالحجّة، لم يرغب في ممارسة مهنةِ المحاماة، وبالتّالي، لم يتمكّن بروتاغوراس من قبض أجورهِ على التعليم، حتى بعد انقضاء فترةٍ طويلة من قيامه بعمله.

فلجأ بروتاغوراس إلى القضاء ليستردّ أجرَهُ، وتقدّم بحجّةٍ قويّة مفادُها أنّ على التلميذ أن يدفع له أجرَ التعليم، إمّا عن طريق الاتّفاق السابق لو كسب التلميذ هذه الدعوى، وإمّا عن طريق الحكم القضائي لو خسر.

غير أنّ التلميذ المتّهَم، أثبت أنّه تعلّم جيّداً على يـــدَي أستاذه، وأثبت جدوى التعليمِ الذي تلقّاه، وذلك من خلال ردّه الآتـــي :

سيدي القاضي .. لاينبغي أن أدفعَ شيئـــاً لمعلّمـــي، وذلك عن طريق اقتناع هيئـــة المحكمـــة بـــأقوالي والحكـــم لصالحي.. فإذا كسبت الدعوى ضدّه لاينبغي أن أدفع له شيئاً .. أليس كذلك؟

ومن ناحية أخرى، سيّدي القاضي، لو أنّني خســـرتُ هذه الدعوى، فإنّه لاينبغي لي أن أدفَع شيئاً، وذلـــك بحســـب الاتّفاق السابق مع معلّمي.. ذلك الاتّفاق الذي ينصّ على أنني لن أدفَع إلاّ أجورَ أوّل قضية أكسبها.. أليس كذلك ؟

وهكذا تقاضى المعلّم أجرَهُ كلاماً في كـــلام وحجّـــة بحجّة ...

وما كان منه إلاّ أن يفخر بتلميذه الذي تفـــوّق عليـــه واكتفى بلسان حالٍ يقول:

أعلّمهُ الرمايةَ كلَّ يـــومٍ فلمّا اشتدّ ساعدُهُ رمانـــــي

فمَن هزم مَن ..؟



سقراط

كان سقراط – أبو الفلاسفة – دؤوباً على التفكــــير..
صبوراً على شتائم زوجته المتلاحقة، لأنّه لم يكن يهتم بتدبير
أمور الأسرة ومقتضيات واجب الزوج تجاه رغبات امرأتـــه.
ولم تمنعه دمامةُ خلقته من أن يكونَ حســـنَ الخُلُــق ومثــالَ
الشباب المنطلق في عصره.

فخلف وجهه القبيح وأنفه الكبير وثوبه المهلهل الذي
قلّما يغيّره، كان يقبع أعظم مفكّر شهدته أثينـــا فـــي القـــرن
الخامس قبل الميلاد.

كان سقراط الذي يقرّر المناطقة عادةً أنّه فانٍ، حيـــن
يريدون تعليمَ المنطق لتلاميذهم وكيفية الانطلاق من المقدمات
لنصل إلى النتائج فيقولون : كلّ إنسان فان / سقراط إنسان /
سقراط فانٍ، نقول كان يعمل سقراط نحّاتاً لرفاة القبور بيديه،
ولكنّ فكره كان منشغلاً بالإنسان ومشكلاته، فـــي حيـــن أن
اهتمام زوجته كان منصباً على استقبال النسوة كل يوم، مـــن

الصباح إلى المساء، لتُشبعَ رغبة الثرثرة المتجدّدة في أعماقها. ممّا كلّفه كثيراً من التشرّد والتعب، والإنفاق على المياه التي تسكبها زوجته فوق رأسه ليصحو مبكّراً ويأتيها بلوازم الضيافة، ثم ينصرف عن البيت حتى آخر الليل. والذي جعله يتحمّل ذلك كلّه، اعتقادُه بأنّ على الإنسان أن يتزوّج، ومهما تكن النتيجة فهو المستفيد، فإن كانت الزوجة صالحةً تسنّى للرجل أن يعيشَ بهدوء واستكانة ودعة، وإن لم تكن كذلك أصبح فيلسوفاً. وبالفعل فقد حظي هو بالثانية.

*   *   *

حقّاً، لقد كان سقراط كسولاً بعض الشيء في ممارسة الحياة اليوميّة، ولكنّه كان، من ناحية أخرى، نشيطاً في الإمساك بتلابيب كلّ من يصادفه في طريقه ليسأله في بعض الموضوعات التي تشغله، مصطنعاً أسلوب التجاهل، طالباً العلم من الآخرين، حتى إذا بدؤوا بالحديث فإنّه سيوصلهم منطقياً إلى مايريده هو. لقد كان يضع محدّثَهُ ضمن إطارٍ من الأسئلة الدقيقة المحدَّدة ليجعلَه في النهاية يصلُ إلى تعريفٍ للعدالة، مثلاً، ثم يقول له: حقاً إنك علّمتني معنى العدالة، وأنا أشكر لك ذلك.

وكان لمنهجه مرحلتان: التهكّم والتوليد.. بالتهكّم يسأل، وبالتوليد يساعد الآخرين على استخراج الحقائق من أنفسهم .. فأمُّهُ قابلة تولّد النساء، وهو يولّد نفوس الرجال وعقولهم.

ويقرّر سقراط بأنّ عقلَ الإنسان يسيطر على حسّه ويديره، وأن القوانين العادلة تكون عادة صادرة عن العقل، مطابقة للطبيعة الإنسانية الحقة، وهي صورة من قوانين رسمها الإله في قلوب البشر.. فمن يحترم القوانين العادلة يحترم العقل والنظام الالهي، ومن يحتال لمخالفتها بحيث لايُعاقب في الدنيا، فإنه سيؤخذ بالقصاص العدل في الحياة المقبلة.

ويرى أن الإنسان السليم يريد الخير دائماً، ويهرب من الشر بالضرورة، فمَن تبيّنَ ماهيّته وعرف خيرَه، أراده حتماً. أمّا الشهواني فرجل جهل نفسَه وخيرَه، لأنّه لايُعقَل أن يرتكبَ الشر عمداً، وعلى ذلك فالفضيلة علم، والرذيلة جهل، لهذا أطلق سقراط صيحته المشهورة (أيّها الإنسان.. اعرف نفسك) .. وقد كان سقراط وطنياً صادقاً .. وجنديّاً باسلاً، اشترك في حربين، وأنقذ الجنرال السيبادس في إحدى المعارك، وكان عضواً بارزاً أصابته القرعة، فدخل مجلس

الشيوخ، وعُرف بالنزاهة واستقلال الرأي بين الديمقراطيين، ثم عاد إلى سابق عهده في البحث والإرشاد، بعد أن انتهت مدّة انتخابه، فالتفّ حوله الشباب في جماعات كثيرة، وكان بينهم رجال أغنياء مثل أفلاطون والسيبادس، يدعونه إلى موائدهم ويستمتعون بقدحه للنظام الديمقراطي في أثينا.

* * *

وقيل إن صوت الحرب أعلن على لسان أحد الكهنة أن سقراط أحكم أهل اليونان قاطبة، وفسّر هو هذا القول باللاأدرية التي كانت بداية فلسفته، والتي أعلن فيها (لاأعرف سوى شيء واحد هو أنني لاأعرف شيئاً) .

وقد آمن سقراط بإله واحد، وأنّ الموت لايعني النهاية، وأنّه لابدّ أن تكون هناك شريعة أخلاقيّة أبديّة، وهي لايمكن أن تقوم على دين ضعيف كدين الاثينيين. واتُّهم بتحريض الجنرال السيبادس ضدّ الدولة واقتيد إلى المحاكمة، ولا غرابة في ثورة السيبادس، ضدّ دولة لاتثق بالمقدرة والكفاءة والمواهب، وتقدّر العدد أكثر من المعرفة، أليس من المخزي أن يقوم على حكم الشعب أناس لايجيدون حتّى سَبك الخطب القصيرة ذات المعنى.؟لهذا السبب دعا سقراط إلى الأخذ بالارستقراطية..

فماذا كان رد الديمقراطيين على الدعوة السقراطية إلى الارستقراطية .؟!

لقد سطّرت ديمقراطية أثينا بسطحيّتها اسم أوّل شهيدٍ للفلسفة، دافع عن حقوق الإنسان، وعن حريّة أفكاره، ورفض أن يطلبَ الرحمةَ من الجهَلة الذين كانوا سيطلقون سراحَهُ لو فعل. وأُدخل سقراط السجن تمهيداً لإعدامه، فائتمر تلاميذُه وهيّئوا له أسباب الفرار، ولكنّه أبَى أن يهربَ كالعبيد، ورفض أن يخرج على قوانين بلاده وقال: (إن القوانين سياج الدولة، في ظلّها ينشأ الأفراد ويحيون) فلئن ظلمه الأثينيون، فبأيّ حقّ يستهين هو بالقوانين ويظلمها؟ وهل يكون الأجانب الذين سيلجأ إليهم أوسعَ صدراً من مواطنيه في استيعاب وعظه وتأنيبه ظلمَ الحاكمين.؟!

* * *

لقد رفض سقراط إلاّ أن ينفّذ حكم الإعدام الذي صدر بحقّه.. وهاهو أفلاطون يحدّثنا عن تلك اللحظات الرهيبة.. دخل سقراط الحمّام ليوفّر على النسوة تغسيل جثّة هامدة، ثم خرج فرأى السجّانَ يبكي عليه، فخاطبه قائلاً: دعهم يُحضرون السمّ ياكريتو.. قال كريتو: إنّ الشمسَ ماتزال فوق الهضاب، والكثيرون تناولوا السُمَّ في وقت متأخّر بعد أن

أكلوا وشربوا وانهمكوا في مباهج شهوانيّة . قال له سقراط: إنّ تأخّري في شرب السمّ لن يجدي لي نفعاً، لأنّني بذلك أكون قد وفّرت حياةً قد انتهت، ولا يمكنني سوى الضحك على نفسي من جراء هذا العمل.

ثم تناول الكأس بأسهل وألطف طريقة، وبدون وجل أو تغيّر في لونه أو قسمات وجهه، ورفعها إلى شفتيه في هدوء وابتهاج. ويقول أفلاطون: وعندما بدأنا في البكاء .. نهَرَنا وقال : (ماهذا الصراخ والصخب. لقد أبعدتُ النّساءَ من هنا كيلا أشعر بالإهانة في مثل هذه الطريقة، فقد سمعتُ بوجوب ترك الرّجل يموت في سلام، اهدؤوا واصبروا).

* * *

هكذا كانت نهاية من سمّاه أفلاطون.. (أحكم وأعدل وأفضل جميع الرجال الذين عرفتهم في حياتي).

والذي نريد أن نقوله الآن بعد أن رأينا موقف رجل عظيم دافع عن حبّه للإنسان وعن أفكاره أروع دفاع .. إنّ الفلسفة لم تعد وقفاً على الرّجال الأفذاذ الذين يهجرون الحياة ليعيشوا بأحلامهم التأمّلية، بل هي قد دخلت إلى كلّ البيوت، سواء عن رضى أصحابها أو بالرّغم منهم.

فالفلسفة أو التفكير بأمور الإنسان تقف موقف القاضي المراقب لسير سلوك العلماء والسياسيين والشعب كافة، لتسألهم من أجل ماذا يفعلون، مايفعلونه ..؟!

إنّها تطالب الجميع بأن يقدّموا أوراق اعتماد أفكارهم وأعمالهم ومخترعاتهم وما يعيشون به أو من أجله. وقد تحوّلت بفضل سقراط - من (علم الكون) إلى علم الإنسان.

*   *   *

كان سقراط واحداً من أعظم الذين التزموا بهدف تحرير الإنسان من عبوديّته للآخرين ولشهواته الدنيئة، ويتحتّم علينا الاقتداء بإرادته في تصميمها على المضيّ في طريق المعرفة المكرّسة لأجل الإنسان.

إنّ سقراط لو كان حيّاً الآن لكان وقف بعنف تجاه سوء استخدام العلم في العصر الحديث، وإساءة التصرّف بالمخترعات التكنولوجيّة المعاصرة .. أليس كذلك؟.

*   *   *



أوهام الخطيئة و الخلاص

لكل زمان أوهامُهُ التي يبتدعها أناسٌ وصلوا إلى حافّة اليأس، بعد نضالٍ مريرٍ لاجدوى منه، أو أناسٌ ارتاحوا إلى الكسل، وآثروا أن يعلّقوا أخطاءَهم على مشاجب الآخرين، أو أرادوا أن يحمّلوا أوزارهم إلى من يتوهّمون أنّه يخلّصهم من الآثام التي اقترفوها.

وقد تساهم فئةٌ ما، خدمةً لمصالحها، في ابتكار طرائقَ تُوهمُ النّاسَ بأهميّة أن تفكّرَ عنهم، وتتحمّلَ العبءَ رأفةً بهم وحُبّاً بالإنسانية. ومن هؤلاء بعضُ السّاسة أو المثقّفين أو رجال الدين الّذين يمتطون صهواتِ الخيال، ويتوسّلون سذاجةَ بعض المريدين أو الأتباع، ويجعلون منهم إمّعات، أي تابعين يقولون للمرشد إننا معك، ويردّدون مايطلبُ إليهم ترديدَه.

إن مثل هذه الأوهام ليست جديدة، وإنّما نشأت لدى الإنسان مع بَدءِ الحضارة الإنسانيّة وهو يجابه تحدّيات الطبيعةِ من حوله.

في لحظات الضعف يستسلمُ المرءُ ويمنحُ قيادهُ لقـــوى خارجية، كما لو كانت تملك القدرةَ المطلقة على تدبير شؤونِهِ على أحسن مايرام، أو وكأنّها تضمن له حُسْنَ الختام.. بدونِ ضرائب.

وفي قديم الزمان، نشأت في بلاد الفرس فكرةٌ كان لـــها أثر كبير في الديانات اللاحقة، فمنذ القرن الرابع قبل الميـــلاد آمن الفرس بفكرةِ المخلّص الذي سيعود إلى العالم لينقذَ البشرَ من الشرّ والظلم. و (ميترا) منظّمُ الكون ومنقذُه، تحت إمـــرة الزّمان، سيعودُ يوماً ليضرمَ ناراً تلتهمُ الكون، ويطهّرَ العـــالَم من أدرانه، ويبدّدَ الظلام.

وهذا المخلّص الذي ابتدعه الإنسان منذ القديم لبّى حاجةً أساسيّةً لديه، وهي الرّغبةُ في استحضار حالةٍ تتحقّـــقُ فيـــها رغائبُهُ وميولُه. وبما أنّ الواقعَ المرير، والصراعـــاتِ التـــي تحدث بين بني البشر، والمصالحَ المتضاربـــة؛ تحـــولُ دون تجسيد الإنسان لأحلامه عمليّاً، فيلجأ إلى عالمٍ غـــير العـــالم الذي يعيش فيه بحثاً عن السّعادة المنشودة، والعزاء المبتَغى. تعتقد بعضُ المذاهب أنّ الإنسانَ كان في الجنّة هانئاً ناعمـــاً، لكنّ إلحاح الفضول، وحبَّ المعرفة، دفعاه إلى اقتراف ذنـــب أضاع عليه فرصةَ البقاء في العالم العلوي الـــهادئ، وتحتّـــم

عليه أن يَحُثَّ الخُطا، ويواصل السعيَ كي يفوزَ باستحقاقِ العودةِ إلى الفِردوس المفقود.

لكنَّ مذاهبَ أخرى تظنُّ أنّ العالَم المنشود يمكنُ أن يُدرَكَ عند مجيء مخلِّصٍ يملأُ الكونَ عدلاً ورحمة. ومن هنا نشأت دياناتُ الخلاص مثل ديانة (ميترا) التي أخذت فكرة المخلِّص من المزدكيّة، وجعلت (ميترا) المنقذَ الذي سيعودُ يوماً ما إلى العالم، فيبعث الموتى ويُجري الدينونة ويصنعُ الخلود.

وكذلك فعل (ماني) بعد ميلاد المسيح بمئتي عام، حيث قضى حياتَه يبشّر بدين جديد ويحاربُ المجوس. ادّعى (ماني) أنّه المسيحُ الثّاني الذي وعد به يسوع، وأنّه جاء العالم (بديانةِ الخلاص).

لقد حلَمَ النّاسُ بالخلاصِ من شقائهم، ولم يجدوا أمامهم سوى المخلِّص الذي تزداد الحاجةُ إليه كلّما طغى الشّر وعجزت إمكاناتُ الطبيعة الإنسانية عن التخلّص منه. لذلك اتّخذت بعضُ الشعوبِ إلهاً مخلّصاً، واتّخذت شعوبٌ أخرى نبيّاً أو فيلسوفاً، أو رئيساً للمدينة الفاضلة كما فعل أفلاطون والفارابي.

وقد يتصوّر الناس المخلِّص إلهاً تجسّد في إنسان، كالمسيح عند النصارى، والإمام المهدي وقائم القيامة عند بعض غلاة الشيعة.

نشأت المسيحية وترعرعت في ظلّ فكرة المخلّص التي تأصّلت في النفوس وعندما امتدّ الفتح الإسلامي، وانتشر الإسلام، خارج الجزيرة العربية، اعتنقته شعوبٌ فارسية وسورية ومصرية، لها معتقداتٌ وتراثٌ وحضارة لم تتخلَّ عنها، فاختلط عليها الأمر وظنّت بالإسلام ماليس فيه، ممّا أدّى إلى وجود فرق واتّجاهات مختلفة. ونجد في الفكر الهندي اعتقاداً تتردّد أصداؤه في الديانات الأخرى.

ويذهب هذا الاعتقاد إلى أن كلّ بوذا – وهم خمسة – يتجسّم بحيث يهيّئ الشروط الزمانية والمكانية لإحداث بوذا على الأرض. وعندما تتجمّع الشروط التاريخية الكافية، يتّخذ البوذا شكلاً بشريّاً ويصبح مخلّص العالم. لكنّ هذا لايتمّ إلاّ عندما ينتشر الشر والظلم. ولا شك أن هذا الاعتقاد يذكّرنا بالمخلّص المنتظر أي المسيح الذي مايزال اليهود ينتظرون مجيئه. كما يذكّرنا باعتقاد النصارى الذين يأملون أن يعود المسيح في آخر الزمان ليوقف أعمالَ المسيح الدجّال.

ومن عقائد الشيعة البارزة الاعتقاد بالمهدي. وكلمة المهدي اسم مفعول من هَدى، يقال: هداه الله الطريق، أي عرّفه إيّاه ودلّه عليه وبيّنه له فهو مهدي. ولم ترد كلمة المهدي في القرآن الكريم، وإنما وردت المهتدي " من يَهْدِ اللهُ فهو المهتد" وورد الهادي " ولكلّ قومٍ هاد " وقد ورد في شعر حسّان بن ثابت في وصف النبي الكريم بالمهتدي يقول:

بأبي وأمي من شهدتُ وفاتَه في يوم الاثنين النبيّ المهتدي

ووصفه بالهادي :

بالله ماحملتْ أنثى ولا وضعتْ مثلَ النبيّ رسولَ الرحمةِ الهادي

ووصفه أيضاً بالمهدي في قوله يرثيه :

مابالُ عيني لاتنامُ كأنّما كُحِلَت مآقيها بكحلِ الأرمَدِ

جَزِعاً على المهديّ أصبحَ ثاوياً ياخيرَ من وطئَ الحصا لاتبعدِ

وقد وردت في بعض الأحاديث الشريفة كلمة المهدي وهي في كل ذلك بمعناها اللغوي الديني رجل هداه الله فاهتدى. لكنها، فيما بعد، أخذت معنًى جديداً وهو إمام منتظر يأتي فيملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً. وأول من أطلقها بهذا المعنى مازعمه كيسان مولى علي بن أبي طالب في محمد بن الحنفية، فقد زعم كيسان إمامة محمد بن الحنفية وأنه مقيم في جبل رضوى. وقد مات ابن الحنفية سنة إحدى وثمانين للهجرة ودُفن بالبقيع، ولكنْ لم يشأ الكيسانية أن

يؤمنوا بموته وقالوا بغيبته وبانتظاره حتى يعود، وكان هـــذا أساساً لفكرة الإمام المنتظر عند الإمامية الاثنى عشريّة.

وهذه العقيدة برجوع الإمام بعد غيبته هي المسماة فـــي عرف الشيعة بالرجعة.

وقد انتشرت فكرة المهدي المنتظر في العصر الأموي، وكان لبعض الأمويين مهدياً آخر يُلقّب بالسفياني.

ومن طرائف ماحدث حول فكرة المهدي أنّه لمّـــا قـــال الشيعة بالمهدي وقال بعضُ الأمويين بالسفياني، وضع الشيعة الأحاديث بأن المهدي إذا خرج سيقابل الســفياني إذا خـــرج، وسيبايع الناس المهدي يومئذ بمكة بين الركن والمقام، ثـــم إن المهدي يقول: أيها الناس اخرجوا إلى قتال عدوّ الله وعدوكم فيجيبونه ولا يعصون له أمراً، فيخرج المهدي ومن معه من المسلمين من مكة إلى الشام لمحاربة عروة بن عمر السفياني ومن معه ... " .

ويبدو أن العباسيين عزّ عليهم أن يكون للشيعة مـــهدي وللأمويين سفياني وليس لهم شيء، فأنشأوا لهم مهدياً أيضـــاً ووضعوا له الأحاديث.

ولعلّ انتشار خبر المهدي حمل المنصور على تســـمية ابنه المهدي والإيهام بأنّه المهدي المنتظر.

وقد أُحيطت شخصيّة المهدي بجوّ غريب من التنبــؤات والإخبار بالغيب وبحوادث الزمان إلى يوم القيامة، مما مـــهّد الطريق أن يخرج، بين فترة وأخرى، من بين النـــاس مــن يدّعي أنه المهدي المنتظر.

وقد استفادت الصوفية من فكرة المهدي وصاغته مـــن جديد وسمّته (قطباً)، وهو الذي يدبّر الأمر في كل عصـــر، وهو عماد السماء ولولاه لوقعت على الأرض. ويلي القطـــبَ النجباءُ الاثنا عشر الذين يعلمون مالا نعلم، كما يقـــول ابـــن عربي في الفتوحات المكيّة.

عزيزي المستمع سنفرد أكثر من حلْقة حول الصوفيـــة والتصوف في الأسابيع القادمة، بإذن الله. وما يهمّنا الآن هو التخلّص من الفكرة الاستسلامية التي تدعونـــا إلـــى إهمـــال شؤوننا والاتّكاء على مخلّص يتحمّل عنا أوزارَنا أو يفكّر عنا فيما يجب علينا أن نفكّر فيه.

تلك الفكرةُ التي تلبس ألفاظاً متنوعة، كلما كُشف وهـــمُ لفظٍ منها ابتدعتْ سواه، وهكذا تنقّلت مـــن المخلّـــص إلـــى المهدي إلى القطب إلى الغوث إلى الرجعة وسواها ...

وعموماً لايزال هناك شعور بالحرمـــان. وأن التمتّـــعَ بالحياة خطيئة وأن الإنسان لايستطيع أن يخلّـــص نفســـه إلاّ بمساعدة قوّة خارجيّة عظمى. وما زالت عقيدة الخطيئة هـــي الفرضية الأساسية في المسيحية، ويرى أصحابُها أنّ خلاصَ

الإنسان إنّما يكمن في التحوّل إلى المسيحية لينعم بـــالخلاص عبر المسيح المخلّص الذي يتحمّل عنّا خطايانا.

هذا في حين كان العالم الوثني الاغريقي يصوّر الآلهة على هيئة بشر، يمكنه أن يمـــرحَ معـــهم بـــدون أن يشعـــر بالخطيئة.

وإذا فكّرنا في أن الطبيعة الإنسانية لايمكـــن أن تكـــون شرّاً خالصاً بتكوينها، فإنّنا ننعم بحياة هانئة، لأن الله لايمكـــن أن يعاقبَنا على مجرّد وجودنا في هذا العالم وكل ماعلينـــا أن نفعلَهُ هو أن نكونَ معقولين في اتّجاهـــات عواطفنـــا وفـــي تصريف غرائزنا أو الامتثال إليها بخفّة ولطف بدون كبت أو مغالاة. ونحن لو أننا مارسنا حياتَنا بشكل لايدعونا إلى الخجل من أولادنا أو أحفادنا حين يطّلعون علـــى يومياتنـــا، نكـــون مرتاحي الضمير الذي يعدّه (لين يوتانج) أعظمَ النّعَمْ.

فلماذا ننصرف عن الله إلى سواه من أجـــل خلاصنـــا ونحن نعلم أنه { **وفوق كلّ ذي علم عليم** } . ونعـــي قولَـــهُ تعالى :{ **من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه، يعلم مابين أيدهم، وما خلفهم، ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء** } ..

ونعلم بأنّه لاتثريب علينا من ممارسة حياتنـــا اليوميـــة بضمير مرتاح لأنّنا نذكر قولَهُ تعالى: { **وابتغِ فيما آتـــاك الله الّدارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبَك من الدنيا** } . صدق الله العظيم

أفلاطون

إنَّ جُهد سقراط لم يذهب سدىً، إذ لعب دوراً هاماً في أسلوب تفكير تلاميذه الذين نبغ منهم أفلاطون. لقد كان اجتماع أفلاطون بسقراط نقطة تحوّل في حياته. فالشابُ الغني الذي نشأ في محيطٍ مريح، ونال جوائزَ عديدة في الألعاب الرياضيّة، وجد بهجةً جديدة في لعبة سقراط المنطقية الجدليّة، واستهوته رؤيةُ سقراط يدحض البراهين والاعتقادات القديمة، ويقلبُ الفرضياتِ رأساً على عقِبْ. فدخل أفلاطون إلى هذه الرياضة التي كانت أشدَّ خشونةً من المصارعة. وراح ينتقلُ – بمعونةِ سقراط – من مجرّد النقاش إلى تحليلاتٍ دقيقة، ومحادثاتٍ مثمرة. وأصبح مشغوفاً بالحكمة وبمعلّمه سقراط، حتى اعتادَ القول : أشكرُ الله الذي خلقني يونانيّاً لا بربريّاً، حرّاً لا عبداً، رجلاً لا امرأة، ولكنْ .. فوق الجميع.. أشكرُ الله .. أنّني ولُدت.. في عصرِ.. سقراط.

فما هي الإضافات التي أسهَمَ فيها أفلاطـــون لتطويـــر التفكير البشري؟ وهل أفلح في تحقيق أفكـــاره علـــى أرضِ الواقع، أم أنّ المكتوبَ ظلّ في عِدادِ المكبوت ؟ وهـــل كـــان مصيرهُ أفضل من مصير أستاذه ؟.

ولد أفلاطون قرب أثينا من أسرةٍ عريقةِ الحَسَب، ولـــها شأنٌ كبيرٌ في السياسة الأثينيّـــة. تلقّـــى مختلـــفَ المعـــارف المنتشرة في عصره. وفي سنّ العشرين تعرّفَ إلى ســـقراط، وتتلمذ على يديه. كما استفاد من رِحلاته الكثيرة التي تخلّلتها زيارتُهُ إلى مصر. وما كاد يبلغُ الثالثةَ والعشرين حتّـــى أراد نفرٌ من أهله وأصدقائه أن يقلّدوه منصباً سياسيّاً رفيعاً ، بعـــد أن اغتصبوا الحكم بمساعدة اسبارطة، لكنّه آثر الانتظار، ثم لاحظ طغيانَ الأرستقراطيين الذين بالغوا في الانتقـــام مـــن أخصامهم. ولمّا هزمهم الشعب قامت الديمقراطيـــة، ولكنّـــها سرعان ماأعدمت سقراط، ففضّل أفلاطـــون الابتعـــادَ عـــن المناصبِ السياسيّة، وأيقن أنّ الحكومةَ العادلة لاتأتي عفـــواً، ولا بُـــدَّ من التمهيدِ لها بالتربية والتعليم. وكـــان هـــذا أحـــدَ الأسبابِ التّي دعته إلى إنشاءِ مدرسةٍ على أبواب أثينا، وتطلّ على بستان البطل الأسطوري أكاديموس، فســـمّيت مدرســـته

أكاديمية. وتُعدّ الأكاديميةُ الأصلَ الأوّل الذي تفرّعت عنه الجامعات فيما بعد.

استمرت الأكاديميّة تسعمائة عام إلى أن أغلقها الامبراطور جستنيان في القرن السادس للميلاد، بعد أن شعر بأنّها تراثٌ كلاسيكيّ يؤذيه. فهرب روّادُها إلى فارسَ حيث رحّب بهم كسرى أنو شروان، وأنزلهم في جنديسابور، وانتقلت، بذلك، الفلسفة اليونانية إلى المشرق، ونفدت إلى العرب الذين طوّروها وطعّموها بصبغة إسلامية، ونقلوها إلى أوروبا عبر ترجمتها إلى اللاتينية.

جعل أفلاطون مدرستَه جمعيّةً علميّةً دينية، وكتب على مُدخَلِها لافتةً تمنعُ أيَّ شخصٍ من الدخول مالم يكن يُتْقِنُ الرياضيات. وظلّ يعلّمُ فيها ويكتبُ أربعينَ سنة. تناول التّعليمُ في تلك المدرسة جميعَ فروعِ المعرفة، وكان لكلّ فَرعٍ معلّمونَ متخصّصون، بقي في طليعتهم أفلاطون، الذي ترك إعدامُ سقراط أثراً كبيراً في نفسه، ذلك الرجل الذي يَعدُّهُ أعدلَ وأحكمَ رجلٍ في عصره. لقد كان اجتماع أفلاطون بسقراط نقطة تحوّل في حياتِه. فالشابُ الغنيّ الذي نشأ في محيطٍ مريح، ونالَ جوائزَ عديدةَ في الألعابِ الرياضيّة، وجدَ بهجةً جديدةً في لعبةِ سقراط المنطقيّة الجدليّة، واستهوتهُ رؤيةُ

سقراط يدحضُ البراهينَ والاعتقاداتِ القديمة، ويقلِبُ الفرضياتِ رأساً على عقِب. فدخلَ أفلاطون إلى هذه الرياضة التي كانت أشدّ خشونةً من المصارعة. وراحَ ينتقلُ – بمعونةِ سقراط – من مجرّدِ النقاشِ إلى تحليلاتٍ دقيقة، ومحادثاتٍ مثمرة. وأصبحَ مشغوفاً بالحكمةِ وبمعلّمهِ سقراط، حتّى اعتادَ القول : أشكرُ الله الذي خلقني يونانيّاً لا بربريّاً، حُراً لا عبداً، رجلاً لا إمرأة، ولكنْ.. فوق الجميع.. أشكرُ الله.. أنّني وُلدت.. في عصرِ.. سقراط. ولأنّ سقراط اتُّهِمَ زوراً بإفسادِ شبابِ أثينا من قِبَلْ ديمقراطيتها، لذلك قضى أفلاطون بقيّةَ حياتِهِ يفكّرُ في مسألةِ الحكم، وفي صفاتِ من يرضاهُ حاكماً يقيمُ العدلَ ولا يقترفُ الأخطاءَ التي مارسها أقرباؤه الأرستقراطيون، والتي وقع فيها الديمقراطيونَ من بعدهم، بسبب الافتقار إلى الحاكم الصّالح. لذلك بدأ أفلاطون يبحثُ عنه، أو يرجو العثورَ عمّن يمكنُ تأهيلُهُ لإقامةِ العدل.

بَعد عشرين عاماً من عمل الأكاديميّة مات ديونيسيوس الأول حاكمُ سراقسة عاصمة صِقِلّيَة، وخلَفَهُ ابنُه ديونيسيوس الثاني، الذي كان حينذاك شاباً محدودَ المعرفة، قليلَ الخبرةِ، في الثلاثينَ من عمره، وكانت السلطةُ الحقيقية في يد زوج

أخته ديون، الذي كان معجباً بأفلاطون، فوجّه إليه الدعوةَ كي يعلّمَ الحاكمَ الجديد، ويجعلَ منه رجلاً واسعَ المعرفة.

وكان سرورُ أفلاطون عظيماً لأنّهُ سيتمكّنُ من وضـــع نظريّــته في تعليم الحكّــام موضعَ الاختبار.

ورأى أنَّ تثقيفَ رجل واحد، ولو كان مَلِكاً أسهل مــــن تثقيفِ كلِّ النّاس. وفعلاً فقد بدأ تدريباتِه اللازمة، وكاد يُحرزُ بعضَ النّجاح، لولا أنَّ الحاكمَ الجديد، غضبَ عندما فــــرض عليه أفلاطون إتقانَ الرياضيات، فضلاً عن عــــلاجٍ تعليمــــي طويلَ الأمد، فغضب ديونيسيوس على أفلاطون وأمر بــــه أن يُباعَ في سوق العبيد، فاشتراهُ رجلٌ معجبٌ بآرائــــه، ومنحــــهُ مكاناً فسيحاً للتأمّل في أثينا.

* * *

عَدّ أفلاطون الفلاسفةَ أعظــــمَ النّــــاس، فــــهم الصفــــوةُ المختارة، بفضل ثقافتهم وحرصهم على المعرفة. والفيلسوف هو الإنسانُ الذي يعكفُ على المعرفة، ويؤثِرُ الحكمة، ويحبُّ الحقيقة، وينفذُ من ظواهرِ الأمورِ إلى بواطنها.

وهذا الإنسان هو الجدير باستلام الحكم، فالدولة لاتَصلُحُ إلاّ إذا حكَمها فيلسوف، أو إلاّ إذا درس الحاكمُ الفلسفة، وبذلك

تتحقّقُ الجمهوريّة أو المدينةُ الفاضلة. ومن هنـــا فقــد دارت فلسفتُه حول فكرةِ إيجاد حاكمٍ صالح في مدينةٍ فاضلة.

اعتمد أفلاطون أسلوبَ الحوار في تدوين مُعظمِ مؤلّفاته، متأثّراً بسقراط ، وبالمسرح في عصره.

فلا بُدَّ أن تخضعَ كلُّ دراسة لقواعد الجدل، وهنا يبـــدو إدراك أفلاطون أنّ مَهمّةَ التعليم ليست حشو عقـــول النـــاس بأكبر قَدْرٍ من المعلومات، بل لابُدّ من تعليم المنهج النقـــدي، ووضع المعلومات على محكّ الاختبار. وهـــذا النـــوعُ مـــن التّنظيم هو الذي أودى بأفكار السفسطائيين سريعاً.

أمّا الحوار الديالكتيكي أو الجدل الأفلاطوني فيتّضح من خلال المثال الآتي:

إذا رغبنا في معرفةِ الجميل بالذات أو مثـــال الجمـــال، علينا أن نرتفعَ من حبّ الجَمَال الّذي تتّصـــفُ بـــه وردة، أو جسمٌ إنسانيّ، إلى حبّ كلِّ الورودِ والأجســـامِ الجميلـــة، وإذا عرفنا أن الجمالَ هو جَمَالُ النُّفوس، فإنّ ذلك يرفعنا درجـــةً أخرى ننتقلُ بعدَها إلى تـــذوّقِ الجمـــالِ فـــي الفـــنّ والأدب والموسيقى، حتّى نصلَ إلى إدراكِ الجمالِ المطلق.

وهذا هو الطريق الصاعدة التي سلكناها للوصول إلـــى مثالِ الجَمال بطريق (الجدل الصــــاعد) وإذا عُدنـــا فســـلكنا

جميلةٌ لأنّها تشاركُ في مثالِ الجَّمـــال، ونمـــرٌ – عندئـــذٍ – بطريق (الجدل النازل) ونتأكّدُ من وجودِ عالمٍ لامرئيّ، يتألّف من النماذجَ العقليّة، أو المُثُلِ التي تطبَعُ عالَمَنا بِـــهَا. وهـــذا لاندركُهُ إلاّ بالعقلِ الخاصّ.

لقد رأى أفلاطون أنّ الأشياءَ التي نتعرّفُ عليـــها عـــن طريق الإحساس هي في تغيُّرٍ مستمرّ، وأنّ الحواسّ لاتنقُـــلُ إلينا سوى أشباحٍ زائلة. وهذا الواقعُ المتغيّر، ندركُهُ بـــالعقل. ففي العقل توجد المعاني الضروريّة للحكم على المحسوسات.

وهناك فوق العقل وفوق الأجســـام توجـــد موجـــودات مجرّدة نسمّيها (المُثُلْ). وكلُّ جسمٍ يشاركُ في مثال يشبهُه.

الأجسامُ مؤلَّفةٌ من العالمِ المحسوس، والمُثُل مؤلَّفةٌ مـــن العالمِ المعقول، وعالَمُ الأجسام يســـتمدُّ وجـــودَهُ مـــن عـــالم المُثُل...

فالوجود الحقيقي هو وجـــودُ المُثُـــل ، ومـــا الأجســـامُ والأشياءُ إلاّ ظلالٌ وأشباحٌ لهذا الوجود.

إنَّ النَفْسَ كانت بالقرب من المُثُل قبل نزولها إلى هـــذا العالم، لذلك فإنّ معرفتَنا الحقيقية للأشياء، تعود إلـــى تذكّـــرِ المثال، من خلال رؤيةِ الأشياء الحسيّة.

إنَّ الموجودَ المتعيِّنَ الحسّي، مجرّدُ مظهرٍ للمثال، وهو مظهرٌ ناقص لايرقى إلى مرتبة الحقيقة التي هي المُثُل.

ومعنى هذا أنَّ الموجوداتِ الحسيّةَ التي نراها ونُحِسُّها في العالم الحسّي، عالمِ الظواهر، ليست موصوفةً بوجودٍ كامل، ولكلِّ شيءٍ من هذه الموجوداتِ الحسيّة، نموذجٌ كامل، والأشياءُ التي نراها هي نُسَخٌ من ذلك النموذج، فجهازُ الاستقبالِ الإذاعي الذي تستمعُ منه الآن، هو صورةٌ ناقصة من نموذجٍ كاملٍ أو جهازٍ مثاليٍّ يوجَدُ في عالمِ الصُوَرْ.

وكلُّ جهازٍ يوجَدُ في هذا العالمِ الحسّي، يشتركُ مع ذلك الجهاز المثالي في بعض الصّفات، ولكنّهُ لايمكنُ أن يرقى إلى مستوى الكمالِ المثالي الذي يتمتَّعُ به الجهازُ الوحيد الذي هو ماهيَّةٌ حقيقةٌ لَهُ.

إنَّ مانراهُ هو محاكاةٌ للمثال، ووجودُهُ ظاهريٌّ وحسب، إنّهُ صورةٌ عن الحقيقة.

وهكذا فإنَّ للوجودِ قسمين: وجودٌ حسّيٌّ منظور، يمكنُ إدراكُهُ عن طريقِ الحواس، ووجودٌ عقليٌّ لايُدرَكُ إلاّ بالعقل. والوجودُ الحسّي المنظور له قسمان أيضاً: الأوّل هو الشيءُ الموجود ، والثاني هو صورتُه.

أي أنَّ جهازَ الاستقبالِ الإذاعيّ هو محاكـــاةٌ أو تقليـد للمثال، أما اللّوحـــةُ التشكيليــة، أو الصـــورةُ الفوتوغرافيــة للجهاز، فهي صورةُ الصورة.

فأنا صورةُ مثالي عندما تراني أنت، ولكنَّنـــي صــورةُ صورتي عندما أرى نفسي في المرآة، أو عندما تراني في التلفاز عبر الشاشة الصغيرة.

*   *   *

في الأحوال كلها ، ليست هذه القسمة للوجود الحســـي هي الوحيدة ، فبعد أن قسم أفلاطون الوجود إلـــى قســمين: حسّي وعقليّ، قسم الوجودَ العقلي إلى قسمين أيضاً :

الأوّل يتمثَّلُ في البدهيّات والمســلَّمات التـــي نفــترضُ صحَّتَها، ونستنبطُ من خلالها النتائج.

والثاني هو حقائقُ الأشياء، وهي المُثُل التي توجَدُ فـــي العالمِ الحقيقي، وهذه المُثُل هي الماهيّاتُ الحقيقيـــة للأشيـاء الموجودة في عالم المحسوسات.

*   *   *

ويرتبط رأيُ أفلاطون في المعرفة برأيهِ في الوجـــود، فالإحساس هو أوّل وأدنى درجاتِ المعرفـــة، بينمـــا التعقُّـــلُ أعلاها وأرفَعُها.

فالفكرُ يتدرّجُ من الإحساس.. إلى الفـــن.. إلـــى العلـــم الاستدلالي.. إلى التعقُّلِ المحض.. الذي نَعرِفُ به عالَمَ المُثُل، وبخاصّةٍ مثالَ الخير .. الذي هو أسمى شيءٍ في الوجود.

ويُشَبِّهُ أفلاطون وجودَنا في العالم الواقعي بقوم وُضعوا في كهفٍ منذ الطفولة، وأُوثقوا بسلاســـلَ ثقيلـــة، وأُديـــرت وجوهُهُم إلى داخلِ الكهف، بحيث يعجَزونَ عن التلفُّتِ إلـــى الضوء. وهناك مارةٌ يَبدونَ أمام الكهف، يحملون آنيـــةً ذاتَ أشكالٍ مختلفة، تسقطُ عليها أشعّةُ الشمس، فتُشكّلُ على جدارِ الكهفِ المقابل ظلالاً لها، إنَّ الناسَ الموثّقين لايستطيعون أن يروا إلاّ الظلال، أو الأشباح، لا الأواني نفسها، ولا المـــارّة، ولا أشعة الشمس، ولا مايجري خارج الكهف. وهكذا فليست الأشياءُ الحسيّةُ سوى (ظلال) لــ (المُثُل)، وليس بوسع الناس أن يعرفوا إلاّ هذه (الظلال)، أمّا الحقيقة - ضوء الشمـــس - فلا تدركُها الحواسُّ أبداً .

وللوصول إليها يجبُ على الإنسانِ أن يتخلّى عن كـــلِّ ماهو جسميٌّ، حسّي، وأن يَسُدَّ أُذُنَيهِ ويُغمِضَ عينيه وينكفـــئ

إلى عالمِهِ الباطنيّ، ويحاولَ أن يتذكّر ماعَرَفَتْهُ روحُهُ الخالدة في عَالَمِ المثُلِ.

وقد رأى أفلاطون أنّ الفنّ محاكاةُ المحاكاة، ورفض قبولَ الشعراء في مدينته الفاضلة، لقد وضع في أعناقهم أكاليلَ الورد وأوصلَهم إلى حدودِ المدينة وشكر لهم أعمالَهم ثم نَفَاهُم خارجَ المدينة، لأنّهُ اعتقدَ أنّ شِعْرَ المحاكاة يُفسدُ عقولَ السّامعين. والجدير ذكرُهُ هنا أنّ أفلاطون كان شاعراً أيضاً، كما كان مفتوناً بأشعار هوميروس، وبخاصةٍ إلياذة هوميروس التي كانت ديوانَ اليونانيين.

أما النّفْسُ عند أفلاطون، فقد كانت لها حياةٌ سابقة في عالَمِ المُثُلْ، قبل حلولِها في البدن، وكانت تَعلمُ كلَّ شيءٍ في تلك الحياةِ السابقة، لكنّها نَسِيَتْ كُلَّ معارِفها عندما سُجنتْ في هذا البدن، ويمكنُ - بشيءٍ من الانتباه - أن يتذكّرَ الإنسانُ أو النَفْسُ ماكانت تعلَمُهُ، فالمعرفة إذن تذكُّرٌ أو استرجاع .

والنّفسُ الإنسانيّة خالدة، لأنّها إلهيّة، وهي التي تُديرُ البدَنَ وتتحكّمُ في الأعضاء، وتقاومُ شهوةَ النفس بالإرادة، عندما يكون صاحبُها حكيماً.

* * *

هذه هي بعضُ أفكارِ أفلاطون الّتي شكّلت تراثاً غنيّاً للاّحقين مما أدّى إلى ظهورِ مدارسَ متعدّدة بين مؤيّدٍ ومعارض، وهذا يدلّ على الغنى الفكري الذي تمتّع به.

ولم يكتفِ بمعالجة مشكلات النفس والمجتمع، بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك، فناقش المسألة السياسيّة، ورسم معالم المدينة الفاضلة التي تخيلها، وذلك من خلال كتابه (الجمهوريّة) وما تلاهُ من كتبٍ عدّلَ فيها بعضَ آرائه التي وجدَ أنّها مغرقةٌ في التفاؤل.

* * *

كانت أفكارُ (الحكماء السبعة) الذين لانعرف منهم سوى (صولون)، هي الطريق التي سلكها أفلاطون للوصول إلى المدينة الفاضلة التي أرادها.

عاش (صولون) في أثينا في القرن السابع قبل الميلاد، وكانت تشريعاتُه قواعدَ لإرشاد موظّفي الدولة لضبط أعمالهم الإدارية، كما كانت تنطوي على تصوّر (صولون) للمثل الأعلى للمساواة الاجتماعية في دولة مزّقتها المنازعات بين الأغنياء والفقراء، فقضى بإلغاء الديون، وبالحد من الملكية الفرديّة للأراضي، وتمليك الفلاحين عن طريق توزيع

الأراضي عليهم. ووضع (صولون) أنظمةً لتنشيط الحِـــرَفِ الصناعيّة، لأنّ القِطاعَ الزراعي لم يعد كافيـــاً وحـــده لســدّ حاجاتِ البلاد وتوفيرِ مجالاتِ العمل. وسنَّ نصوصاً تحدُّ من ترف الأثرياء وبذخهم المثير للأحقاد.

لقد آمن (صولون) بسيادة القانون الذي لابُدّ أن تمتثـــل لموادّه فئاتُ الشعب كلِّها.

أمّا (كونفوشيوس) فإنّه يحدّد مَهمّة الحكومة ودورَها في تحقيق ثلاثة أمور: أن يكون لدى الناس كفايتهم من الطعـــام، وكفايتهم من العتاد الحربي، والثقة بحكّامهم.

وفي كتاب (عقيدة الوســـط) يعـــرض (كونفوشيـــوس) لممارسة الحكم، فيرى أن تصريف شؤون الحكم يقتضـــي أن يُناطَ بالأشخاص الصالحين، ولا سبيلَ إلى ذلك إلاّ إذا كـــان الحكم صالحاً. ومهمّة الوزارة الصالحة هي السعي إلى تأمين الاكتفاء الذاتي وتوزيع الثروات على الناس على أوسع نطاق، وذلك لأنّ تركيزَ الثروة في أيدي قلّة يؤدّي إلى تفرّق الشعب وإلى إثارة البغضاء.

والمهمّة الثانية للوزارة هي تخفيف العقاب بإيجاد قوانين غير قاسية. أما المهمّة الثالثة للوزارة فهي نشر التعليـــم، لأنّ التعليمَ يؤدّي إلى رفع مستوى المواطنيـــن. ومـــن مكمّـــلات

التعليم غرسُ الأخلاق الطيبة والسلوك القويم، لأن الأخلاق إذا فسدت فسدت الأمّةُ معها. وهذا يذكّر بقول أحمد شوقي :

إنّما الأممُ الأخلاق مابقيت فإن هُمُ ذهبت أخلاقُهم ذهبوا

أما فكرة المدينة الفاضلة لدى أفلاطون فنراه يصوغها بشكل موسّع في كتابه (الجمهورية). إن الفكرة الأساسية التي يدور حولها موضوع (الجمهورية) هي تحديد معنى العدالة ووصف الدولة المنظّمة تنظيماً مثالياً، ثم تابع فكرته في كتاب (النواميس).

ينتقل أفلاطون في تنظيم الدولة من النفس الإنسانية التي تحتوي على ثلاث قوى:

قوّة رفيعة هي (العقل) وقوتين أدنى هما (النّفْس الغضبيّة) ومركزُها القلب، و (النفْس الشهوانيّة) ومركزّها البطن. وكي يغدو الإنسانُ سعيداً لابُدَّ من صحّة نفْسه، وصحّة النفْس لاتكونُ إلاّ بتوازن قواها، وسيطرةِ العقلِ على الشهوات، حينذاك تعيشُ النفْس في اتّزان يؤمّن لها الطمأنينة والسعادة.

وقد أراد أفلاطون أن يطبّق هذه الآراء على نظرياته السياسيّة. فكما أنّ للنفس قوى ثلاثاً، كذلك في المدينة طبقات ثلاث: (الطبقة الذهبيّة) وهي طبقة الحكّام تتألف من أناس

يسيطر عليهم العقل، وهم القائمون على تدبـــير المدينـــة، و (الطبقة الفضيّة) أي طبقة الجنود الساهرين علـــى حراســتها وهم أناس يتحلّون بالشجاعة، و (الطبقة النحاسية) أي طبقـــة العمّال المنتجين، وهم الذين تسيطر عليهم الشهوات وفضيلتُهم العفّة. ولن تسودَ العدالة مالم تكن القيادة بأيدي العقـــلاء مـــن الطبقة الذهبية. أمّا الجنود فإنّهم يخضعون إلى تربية منظّمـــة تبدأ بتعليم الموسيقى والرياضة على الطريقة الحديثة، فلا بـــد من الابتعاد عن أنغام الأسى وعن الألحان التي تـــؤدّي إلـــى الاضطرابات وإثارة الشهوة والانحلال الخُلُقـــي، والاكتفـــاء بالموسيقا التي تقوّي النفسَ وتبعـــثُ الشجاعـــةَ والحماســـة. وينبغي – أيضاً – تجديدُ الشّعـــر. إن هومـــيروس وهزيـــود وغيرهما، يُظهرون الآلهة بمظهر غير لائق، ويغرسون فـــي قلب النّاشئة الخوفَ من الموت، لذلك يقترح أفلاطون ألاّ يبقى في المدينة إلاّ الشعر الذي يتغنّى بمديح الله ورجال الخير.

أما الرّياضة، فالمقصود منها تقوية الجســـد وتنميتـــه، فيجب أن تؤدّي وظيفتَها بالتدريب العنيف القوي. لكنّ ذلـــك كلّه لايكفي لتكوين رجال صالحين، فوظيفة الرئيس الأولـــى هي أن يحفظ وحدةَ الدولة. ولن يتحلّى الرؤساء بهذه الفضيلة

إلاّ إذا عاشوا عيشةً مشتركة، فلا ملكيّة خاصّة ولا ذهب ولا فضّة ولا عقار ولا وراثة.

وإذا لم تتوافر في أبناء الرؤساء الصفات الضرورية ينبغي إسقاطهم إلى درجة سفلى. وعلى الرؤساء أن يعيشوا عيشة الأخوّة وأن يتّصفوا بالمزايا السقراطية الأربع: الحكمة والشجاعة والعدالة والعفّة.

وللحفاظ على الوحدة في الدولة لابدّ من سنّ قوانين تتضمن أربعة أمور مهمّة : الأمر المهم الأول هو اشتراكية النساء والأولاد، فجميع النساء هنّ زوجات لجميع الرجال، ويُربّى الأطفال معاً على نحو لايعرف أي شخص من هما أبواه أو من هم أبناؤه. أما أولئك الذين يولدون من زيجات لم يقرّها الحاكم فيُعدّون أبناءً غير شرعيين، كما يتم التخلّص من المشوّهين والمنتمين إلى سلالات هابطة، وهكذا تضعُفُ المشاعرُ الخاصّة وتقوى الرّوحَ العامّة.

والأمرُ الثاني هو التمارين الرياضيّة والخُلُقية للرجال والنساء، والثالث: التربية العلميّة والسياسيّة، والرابع: تأمين قيادة الدولة من قِبَل الفلاسفة.

أمّا الجِماع، كما قلنا، فيكون بالقُرْعة، تحت رقابة أولي الأمر لإنجاب نسل مُنتخَب. فلا يكفي تعليم الطفل تعليماً

حسناً، بل ينبغي أن نختار له أبوين قويّين صحيحين. فلا يتناسلُ رجل وامرأة مالم يكونا في صحة جيدة، ويُطلَب من كل عريس وعروس تقديم شهادة تثبت صحتهما. وينجب الرجال مابين سن الثلاثين والخامسة والأربعين، والرجال الذين بلغوا سن الخامسة والثلاثين ولم يتزوجوا يدفعون ضريبة الهناء. كما أنّ تزاوجَ الأقارب محظور، لأنّه يُضعِفَ النّسل. ويحبّذ أفلاطون أن يُكثرَ الأقوياء من التزاوج لإنجاب أكبر عدد ممكن من الأطفال الأقوياء.

ولا بد من توافر فرص متساوية في التعليم لجميع الأطفال، وهو تعليم يؤهّل كلّ الأطفال، بطريق الانتخاب الطبيعي، إلى المركز أو المنصب الذي يصلح له. فيبدأ ابن الحاكم دراستَه على قَدَمِ المساواة والمعاملة مع ابن ماسح الأحذية وغاسل الصحون، فإذا كان ابن الحاكم غبيّاً أو جباناً فإنّه يسقط في امتحاناته، وإذا أثبت ابن غاسل الصحون مقدرةً عالية فإنّه مؤهّل للحكم.

ويُختار أفضل الجميع لكي يتعلّموا الفلسفة، والفيلسوف الذي يُهيّئُ للحكم يجب أن يتلقّى علومَ الهندسة والحساب والفلك والموسيقى والجدل. فيعيش من السادسة عشرة إلى العشرين حياةَ الجنود، بعد ذلك يُمرَّنُ على مهنته عشر

سنوات متوالية، ثم يتدرّب على الجدل مدّة خمس سنين يقضي بعدها خمس عشرة سنة في الوظائف الإدارية أو العسكريّة، ولا ينتقل إلى طبقة الرؤساء إلاّ بعد بلوغه سن الخمسين.

وهنا نتساءل : كم من الوقت يبقى لهذا المتدرّب كي يعيشَه ويمارسَ ماتعلّمه خلال سنيّ حياته السابقة ؟..

وأفلاطون يذهب إلى أبعد من ذلك بكثير فيحصّن الحكّام من الغش بأن يقيم نظاماً شيوعياً يهيئ حكام الدولة وحماتها، فلا يقتنون أملاكاً، ولا تقدّم إليهم سوى دفعة محدودة من المال تكفي معيشتهم طيلة السنة فقط، يقدم بقية المواطنين، ويخبرهم أفلاطون بأن المعدن الأكثر قداسة موجود بينهم فهم ليسوا بحاجة إلى المعدن الذي يتداوله الناس باسم الذهب، وينبغي لهم ألاّ يتعاملوا بالذهب أو الفضة لكننا نلمح سياقاً تطوّرياً للفكر السياسي الأفلاطوني من (الجمهورية) إلى (النّواميس). ولا يتخذوا من ذلك حلية لهم، ولا يحق لهم أن يشربوا في آنية مصنوعة من الذهب، والفضة. وفي هذا خلاصهم ونجاة الدولة، لأنهم إذا امتلكوا البيوت أو الأراضي أو الأموال ، فإنهم يتحولون إلى مدبري منزل ومزارعين وليس حرّاساً للدولة وحكّاماً لها، بل إنهم يكتفون بنيل شرف خدمة الشعب، ويعدّون ذلك مكافأة لهم. وأفلاطون يقسّم العمل بناء على المقدرة والكفاءة لاعلى الجنس. فإذا أثبتت المرأة مقدرتها على الإدارة السياسية، نتركها تحكم وإذا أثبت الرجل

مقدرة في غسل الصحون، نتركه يقوم بالعمل الذي أعدته له العناية الإلهية.

حيث تخلى عن فكرة الشيوعية والشراكة في الأملاك والنساء. إنما يشترك كتاباه في التأكيد على ضرورة التربية تحت إشراف الدولة، وضرورة الخضوع للآلهة والتمسك بالدين لأن الكفر جناية لاتُغتفر. لكنّ هذه الصورة المخيفة للدولة التي تبدو كآلة ضخمة تطحن البشر وتسحق فرديتهم، سرعان مااختفت مع مفكرين لاحقين. ومع ذلك، فقد عادت بشكل آخر، في عصور لاحقة، وبصورة أشدّ قتامة جسّدها ميكيافيللي في كتابه (الأمير)، بعد أن ألهمت قادة مستبدين كانوا في وضع يتيح لهم ادخال تغييرات اجتماعية كبرى دون عمل أي حساب للآلام المترتبة عليها، وكما قال (برتراند رسل) إن ذلك يحدث كلّما سادت الآراء التي تقول إن الناس إنا جُعلوا لكي يتلاءموا مع نُظُمٍ معدّة سلفاً لهم.

ولكن أفلاطون حين أتيحت له فرصة عملية لتطبيق آرائه تخلّى عن الشيوعية الجنسية وعن فكرة إبعاد الشعراء، واكتفى بمحاولة تحويل أمير مدلّل إلى رجل صالح لإدارة شؤون المدينة. ولكنّ إخفاقه في ذلك يدل على أن التعليم ليس علاجاً شاملاً وحيداً كما يبدو لنا أوّل الأمر، وإنما يتطلب إدارة شؤون الدولة، أموراً أخرى مهمّة لابد من توافرها لانتشار العدالة، فما هي العناصر الأساسية للدولة المثلى ..؟.



أرسطو

الأمور الواجب توافرها لإدارة شؤون الدولة تتّضح مع (أرسطو) الذي يؤكّد على أهمية الأسرة حيث يعيش الطفل في كنف والديه ، مما يحصر المسؤولية، التي إذا تُركت للمجتمع بشكل عام ، فإنّها لابد أن تفضي إلى الإهمال .

ومن هنا ينطلق إلى تعريف الدّولة بأنها تكوين يجمع – في حدود معينة – بين مصالح متباينة . و الاعتراف بتبـــاين المصالح المختلفة هو الذي يجعلنا نتجنّب الأكاذيب المتبادَلة .

ويمنح أرسطو العامل الاقتصادي شأناً كبيراً في الدولة، فليس المهم أن تحكم القلة أو الكثرة ، ولكن المهم هو مـــدى السلطة الاقتصادية التي يملكها من يحكمون . أما عن عدالـــة حقوق المطالبين بالسلطة ، فإنّ أرســطو يـــرى أنّ الجميـــع يطالبون بالسلطة لأنفسهم ، مستندين إلى مبـــدأ المســـاواة . ولكنّه يبيّن الصعوبة التي تكمن في تقدير معنـــى المســـاواة .

ذلك لأنّ من يتفوّقون في ميدان معيّن كثيراً مـــا يتصـــوّرون أنفسهم متفوّقين في كلّ شيء .

و الوسيلة الوحيدة لإعادة التوازن هي الاعتراف بالمبدأ الأخلاقي . فالمساواة تتّضح منظور معياري هو الخبير الذي ينبغي أن تكون له السلطة فــــي نهايـــة الأمـــر . وبعـــد أن يستعرض أرسطو أنواع الدساتير المختلفة ، يرى أن أفضـــل دستور هو الذي لا تكون فيه الثروة مفرطــــة أو شحيحـــة . فالدولة التي تغلب فيها الطبقة الوسطى هي أفضل الـــدول و أكثرها استقراراً . ولابد أن يكون حجم الدولة مناســباً لعـــدد سكّانها ، وأن تتوافر لديهم المهارات اللازمة .

ولنتأمل هذا التصوّر البسيط لفيلسوف كبـــير ، حيـــث يقول : يجب أن يكون في استطاعة العين البشرية أن تحيـــط بحدود تلك الدولة من فوق قمة جبل !..

ذلك ما الذي يقوله أرسطو المعلّم الأوّل لو أنـــه أدرك الدولة الإسلامية التي لا تغيب عنها الشمس ؟..

ويستمر أرسطو في تصوّرات لا تناسب أفكاره العظيمة التي يبدو أنها تضيق حين يتعلق الأمـــر بالسياســـة ، حيـــث يشترط أن يكون مواطنو الدولة المنشودة، من الإغريق ، لأنّه

يظنّ أنّهم وحدهم هم الذين يجمعون بيـــن حيويّـــة الشعـــوب الشمالية وذكاء الشعوب الشرقية.

ولكنّه – عموماً – اعتقد أن الحكم الصالح هو الحكـــــم الذي تنتفي فيه إمكانية اســـتغلال الســلطة لمنـــافع الحـــاكم الخاصّة. ورأى أن عادة تغيير القوانين باستهتار و استخفاف عادة سيئة ، وعندما تكون الفائدة من تغيير القوانين صغيرة ، من الأفضل مواجهة عيوب الحــــاكم أو القـــانون وتقويمــــها بالتسامح الفلسفي .

عارض أرسطو فكـــرة المعســـكرات التـــي فرضــــها أفلاطون على الفلاسفة ، مؤثراً العزلة والانفـــراد والحريــــة، وسخر من فكرة المجتمع المفتوح فحين يكون كل الناس أخوة لك، هذا يعني أنه ليس لك أخ حقيقي. وفي الدولة التي يشترك فيها النساء بالأطفال ، يكون الحب مائعاً ..

إن امتلاكك للشيء يبعث في نفسك حبّه و الاهتمام به . إن باعث الكسب ضروري للكدح في العمل المضني ، كما أن حافز الملكية ضروري للصناعة و الفلاحة والاهتمام بالعمل . وعندما يمتلك كل فرد كلّ شيء ،لا أحد يهتم بـــأي شـــيء . ومن الصعب أن يعيش الناس دائماً مع بعضهم في معسكرات مشتركة ، أو أن يشتركوا في ملكيّة كلّ شيء . إن اشــــتراك

الأصدقاء في السفر يثبت أن بعضهم يتخاصمون في الطريق، ويتشاجرون على أتفه الأشياء و أصغرها ، فكيف إذا كـــانت تلك الرحلة دائمة ؟!.

إن فكرة الدولة المثالية تستهوينا فنتوهّم بأنّها قادرة على أن تجعل كلّ إنسان صديقاً للآخرين من خلال إعلانه شجـــب شرور العالم ومفاسده . ولكنّ أرسطو يقرر بحزم : إن العالم السياسي لا يصنع الناس ، وينبغـــــي أن نراعـــي ســـجاياهم الطبيعية .

من هذه السمات العامة في الفكر السياسي الأرســــطي يتّضح أن أرسطو لم يكن متحمساً لشيء ، كمــــا أن أمثلتـــه مستمدة من الواقع العملي، بعيداً عن الأمثلة الكبيرة التي قـــد تثير الإعجاب، ولكنّها لا تؤدّي غرضاً معيّناً . بل إن أرسطو يبدو مفكّراً هادئاً كثير الارتياب، ويصرّ على استخدام المنطق في تفكيره .

لقد اتجه أرسطو بالفكر السياسي نحو استلهام الماضي ، وتحوّل منهج التفكير من القياس عند أفلاطون إلى الاستقراء عند أرسطو، وذلك لأنّ أفلاطون كـــان يعتمـــد الرياضيـــات كمقياس للمعرفة، مما جعل تصوّراته تجريدات كليّـــة . أمـــا أرسطو فقد اعتمد على علم الحياة و الفيزيـــاء منطلقـــاً مـــن

الجزئيّات المحسوسة . ومن هنا فإنّ الدولة عنده هـي نتـاج تطوّر تاريخي ، مرّت بعدة مراحل اجتماعية قبل أن تصـل إلى مرحلة الدولة وتصبح عبارة عن اتّحاد أفراد يتعـاونون على سدّ حاجاتهم عن طريق تبادل السلع و الخدمات.

وأرسطو هو الذي صنّف السياسـة ضمـن العلـوم ، مضيفاً إليها في كثير من الأحيان علم الاقتصاد .

ولكن هل كان اهتمام أرسطو منصبّاً على بناء الدولـة وأسس الحكم بشكل أساسي ؟

بل على العكس ، لم تمثّل الدولة السياسة من تفكيره إلاّ الجزء اليسير .

من المعروف أنّ أرسطو هو ثالث المفكّريـن العظـام الذين عاشوا في أثينا ، ونتيجة إسهاماته الكبيرة فـي الفكـر الفلسفي لُقِّب بالمعلّم الأول . ولد خارج أثينا ولكنّه أُوفد إليـها في الثامنة عشرة من عمره ليتلقّى العلم على يد أفلاطون في الأكاديمية التي قضى فيها عشرين عاماً ، وأخرج خلال تلك الفترة كتابه عن تصنيف الحيوان الذي لـم يسـتطع العـالم تجاوزه إلاّ في القرن التاسع عشر .

استدعاه فيليب الثاني حاكم مقدونيا ليكون معلّماً لابنـه الاسكندر ، وقضى أرسطو ثلاث سنوات في تعليـم الأمـير

المدلّل ، ثم أسّس مدرسة سمّــيت باسم معبد قريب منها هــو معبد أبولولوكيوس ، أي قاتل الذئب . في تلك المدرسة كــان أرسطو يعلّم تلاميذه وهو يمشي بين القاعـــات و الحدائــق ، ويتحدّث أثناء سيره ، ومن هذه العادة اكتسب التدريـــس فــي اللوقيوم اسم الفلسفة المشّائيّـــة.

وبعد موت الاسكندر ، هبّ الاثينيّون ثائرين على الحكم المقدوني . فاتّجهت الشكـــوك إلـــى أرســطو ذي الاتجــاه المقدوني، كما اتُّهم بالخروج عن العقيـــدة الســـائدة . وكـــي لايواجهه مصير سقراط ، ومنعاً من قيام الأثينييــن بجريمـــة أخرى ضدّ الفلسفة ، آثر مغادرة أثينا ، ليس بسبب جبنــــه ، وإنّما اختياراً منه ، إذ جرت العادة في أثينا على تخيير المتّهم بين النفي أو المحاكمة .. وهكذا رحل إلى خـــالكيس حيــث توفّي سنة ثلاثمئة و اثنتين وعشرين قبل الميلاد .

* * *

إذا كنّا قد تكلمنا على فكرة الدولة عند أرسطو استكمالاً لرأي معلّمه فيها ، نعرّج الآن بشكل إجمالي سريع على فكر أرسطو وحياته تمهيداً للغوص في بعض أفكاره المهمة التــي استمرت في هدي البشرية فترة طويلة من الزمان .

آمن أرسطو أو أرسطوطاليس بتمكن العقل البشري من الوصول إلى المعرفة . وقبل أن يبدأ بالبناء الفلسفي ، عرض مذاهب من تقدّموه على محكّ النقد . فرأى أن مفكري اليونان الأوائل قد حصروا الكائن في العناصر المادية ، لكنهم عجزوا عن تفسير الوحدة والنظام .

ولاحظ أرسطو أن فيثاغورس و أفلاطون آمن بوجود قوىً روحانية ، فأفلاطون حاول تفسير الكائنات بمُثُل ، فضلَّ الطريق ، إذ لا وجود في الواقع إلا للجزيء ، ولم يوفّق فيثاغورس عندما حاول تفسير الكائنات المادية عن طريق العدد، فلا وجود للأعداد خارج الأشياء المعدودة .

أما المنطق في رأي أرسطو فهو ليس علماً ، بل آلة للعلم . وهو في منطقه يبدأ (بالمقولات) التي تبحث في الحدود،و(العبارة) التي تبحث في القضايا،ثم (التحليلات الأولى) وهي دراسة شكلية للقياس من حيث هو: (مقدمة كبرى ومقدمة صغرى ونتيجة) ، ثم (التحليلات الثانية) وهي البحث عن الحقيقة بوساطة البرهان المنطقي .

ويقسم أرسطو العلوم إلى نظرية و عملية وصناعية ، تشمل الأولى الإلهيات أو علم ما وراء الطبيعة و يسميها الفلسفة الأولى ، تليها الطبيعيات و الرياضيات .

ويؤكّد أن غاية الإنسان القصوى هي المعرفة ، و المعرفة الحقّة هي معرفة العلل الأولى الكلية . و الفلسفة الأولى هي دراسة الكائن بما هو كائن بغض النظر عن صفاته .

ويستنتج أرسطو ، من خلال دراسته للحركة ، المحرك الأول الذي لا يحركه شيء خارج عنه ، وهو ساكن ، أذلي ، واحد . أما النفس عنده ، فهي أشرف مراتب نشاط البدن ، وحقيقته ، وكماله . وتتضمّن النفس جزءاً لا يعتريه كون ولا فساد ، هو العقل ، أمّا باقي الأجزاء فتضنى بفناء البدن .

وعني أرسطو بقضية الذاكرة التي رأى أنها استعادة صور الأشياء التي عرضت لنا في الماضي .

أما العالم فلم يكن يتصوّره بلا غاية ، بل رأى أن الغاية هي الخير الأعظم أو السعادة التي تتكشف من خلال العلم الأعلى (العلم السياسي) . و السياسة هي توافُق كل فعل مع الفضيلة الخاصّة المميّزة له . والفضيلة هي وسط بين مرضين متناقضين حيث يعدّ الإفراط و التفريط رذيلتين ينبغي الابتعاد عنهما للعيش في الوسط الذهبي .

* * *

بعد هذه الجولة السريعة في أفكار أرسطو ، لابـد لنـا مـن التوقّف عند بعض المحطّات الهامة ، مبتدئين بحياته.

ولد أرسطو في اسطاغيرا وهي مدينة مقدونية تقع شمال أثينا.

كان والده طبيب الملك ، وهذا مكّنه من تلقّي مستوىً طيّـب من التعليم .

التحق بأكاديمية أفلاطون ودرس على يديه عشرين سنة ، وأفق بإسراف لشراء الكتب ، حتى أن أستاذه أفلاطون سمّىَ بيت أرسطو ببيت القارئ .

وبخلاف سقراط فقد عاش الفيلسوف أرسطو سعيداً بزواجه ، وكان يذكر زوجته بالحياة والخير . دعاه الملك فيليب ملـك مقدونيا لتعليم ابنه الاسكندر . كان الاسـكندر عنـد قـدوم أرسطو شاباً متوحّشاً في الثالثة عشرة من عمـره ، وكـان عاطفياً ومصاباً بالصرع ، وكحولياً، ويصـرف وقتـه فـي ترويض الخيل الوحشيّة . ولم يستمر الاسكندر بالتعلّم سـوى عامين ارتقى بعدهما العرش وانشغل بفتح العالم .

وتختلف مدرسة أرسطو من أكاديمية أفلاطون ، فهي تخضع لترتيبات معقدة من أجل الحفاظ على نظام تعليم يضمّ أعـداداً كبيرة من التلاميذ . وقد ترك أرسطو للطلاب وضـع نظـام مناسب فانتخبوا كل عشرة أيام واحداً من بينهم يشرف علـى

المدرسة . وفي حين اعتنت أكاديمية أفلاطون بالرياضيات والفلسفة السياسية التأمّلية ، مالت مدرسة أرسطو إلى علم الأحياء والطبيعة .

وقد استطاع أرسطو بمساعدة الاسكندر أن ينشئ أول حديقة حيوان عظيمة عرفتها البشرية ، وكان يستخدمها في دراساته وتجاربه العلمية على الحيوانات والنباتات . كما أوجد أرسطو علم الأجنّة ، ورأى أن الشخص الذي يرى الأشياء تنمو وتكبر منذ بدايتها أو ولادتها سيكون لديه أفضل الرأي فيها .

لقد قدّم أبقراط ، أبو الطب وأعظم طبيب يوناني ، مثلاً حسناً عن الطريقة التجريبية، وذلك بكسر بيض الدجاج في مراحل مختلفة من حضانته . وطبّق نتائج هذه الدراسات في كتابه الصغير عن أصل الطفل، وحذا أرسطو حذو أبقراط و أجرى تجارب مكّنته من وصف تطوّر الصوص ، أثارت إعجاب علماء الأجنّة حتى اليوم.

* * *

إن السؤال الأساسي الذي يفوق جميع الأسئلة التي تناولت العالم الطبيعي هو السؤال عن الحياة الفاضلة والخير الأعظم في الحياة لنصل إلى بلوغ السعادة وتحقيقها.

كان أرسطو واقعياً بسيطاً في أخلاقه ، لأن تدريبه العلمي يبتعد به عن التبشير بمُثُل عليا فوق مستوى البشر.

ويبدأ أرسطو بالاعتراف أن هدف الحياة ليس الخير بحد ذاته، بل السعادة . ونحن نختار الشرف و السرور والمعرفة لأننا نعتقد أننا نصل عن طريقها إلى السعادة ، ونكون سعداء بفضلها.

ويمتاز الإنسان عن غيره من الكائنات بعقله الذي تؤدي تنميته إلى السيادة على جميع الكائنات الأخرى ، لذلك يفترض أرسطو أن تطوّر المقدرة الفكرية هي التي تحقق له السعادة . وهذا يعني أن حياة العقل هي شرط السعادة ، باستثناء قضاء بعض اللوازم الجسدية . وتتوقف الفضيلة على الرأي الواضح ، وضبط النفس ، وتناسق الرغبات ، وفنّ الاعتدال ، وهي ليست ملكاً للإنسان البسيط ، ولكنها نتيجة خبرة الإنسان وتطوير ملكاته العقلية، حتى يصل إلى تحقيق الوسط الذهبي الذي يكمن بين الإفراط والتفريط . وبهذا المعنى يكون الكرم وسطاً بين البخل والتبذير ، والشجاعة وسطاً بين التهوّر والجبن ، و الصداقة وسطاً بين الخصام و التملق.

وهكذا تكون الفضيلة فنّاً يمكن كسبه بالمعرفة و المران والعادة . إننا لا نعمل الصواب لأننا فضلاء، ولكننا نتّصف بالفضيلة لأننا عملنا الصواب .هذه الفضائل تتشكل في الإنسان بعمله لها ، إننا عبارة عمّا نفعل دائماً . إن الفضل أو الخير في الإنسان هو عمل النفس في طريق الفضيلة طيلة حياته . وكما أن يوم صحو من الأمطار لا يعني أننا في فصل الربيع ، لذلك لا يكفي يوم واحد أو زمن صغير لجعل الإنسان صالحاً وسعيداً .. إنه عمل متواصل دؤوب.

إن معرفة الزاوية التي ننظر منها إلى الأمور، مهمة جداً ، وذلك لأن التطرف أسهل من الاعتدال ، حيث يرى الجبان الشجاعة تهوراً واندفاعاً ، كما يرى المتهور الشجاعة جبناً وضعفاً وتخاذلاً.

من الواضح أن مبدأ الوسط والاعتدال يميّز الفلسفة اليونانية . لقد كان هذا الوسط عند سقراط واضحاً عندما عرّف الفضيلة بالمعرفة ، وكان في ذهن أفلاطون عندما عرّف الفضيلة بأنها انسجام في العمل.

وقد تحدّث أرسطو بإسهاب عن الإنسان المثالي فقال عنه هو الإنسان الذي لا يعرّض نفسه للمخاطر بغير ضرورة، و لكنه على استعداد للتضحية بنفسه في الأزمات

الكبيرة . وهو يعمل على مساعدة الناس ونفعهم ، وينأى بنفسه عن التفاخر و التظاهر . وهو صريح في كراهيته وميوله وقوله وفعله ، ولا يشعر بالغلّ والحقد أبداً ، ويغفر الإساءة وينساها ، ولا يكثر الحديث . و لا يتكلم سوءاً عن الآخرين ولو كانوا أعداء له ، و لا تأخذه العجلة . وهو أفضل صديق لنفسه ولا يخاف من الوحدة . فهل نستطيع أن نتحلّى ببعض هذه الصفات للإنسان المثالي الذي يرسمه أرسطو ؟! ... نتمنى ذلك..

* * *

إن كتاب " الشعر " لأرسطو على الرغم من صغر حجمه ، كان له تأثير كبير على تاريخ النقد الفني ، خاصة في ميدان المسرح.

إن كل فن ، في رأي أرسطو ، يعتمد على المحاكاة أو التقليد، ويبدو أن المحاكاة عنده تنطوي على استخدام وسائل مصطنعة من أجل إثارة مشاعر مشابهة للمشاعر الحقيقية . وسلوك الناس يمكن أن نصوّره بأشكال ثلاثة : قد نصوّرهم على ما هم عليه تماماً ، أو قد نستهدف محاكاة شيء أعلى من مقاييس السلوك العادية ، أو شيء أدنى منها.

على هذا النحو يمكن أن نميّز بين المأساة (التراجيديا) والملهاة (الكوميديا) . ففي المأساة يجري تصوير البشر

بطريقة أعظم مما هي عليه في الحياة ، بشكل لا يحول بيننا و بين إبداء اهتمام متعاطف معهم. أما الملهاة فتصوّر الناس بطريقة أسوأ مما هم عليه في الواقع ، لأنها تركّز على الجانب المضحك في الحياة. ويميّز أرسطو بين الشعر الذي يروي قصّة ، والشعر الذي يعرض حدثاً ، وهذا يؤدّي إلى التمييز بين الملحمة و الدراما . فأصل الفن الدرامي يرجع إلى فنون الإلقاء المرتبطة بالطقوس الدينية.

وعلى حين يستخدم الشعر الغنائي وزناً واحداً طوال الوقت ، فإن المأساة تستخدم أوزاناً مختلفة في الأجزاء المختلفة . و الأهم من ذلك أن إطار المشاهد في المأساة محدود ، فلابد أن تؤدّى المسرحية في جلسة واحدة وفي مكان محصور ، على حين أن الملحمة يمكن أن تكون طويلة إلى غير حد ، وتستخدم الخيال مسرحاً لها.

و يعرّف أرسطو المأساة بأنها محاكاة الفعل البشري ، وينبغي أن تكون فاضلة ، مكتملة، ذات أبعاد معقولة ، وأن تثير في المشاهد شعورين متعاطفين بالرهبة والشفقة ، بحيث تتطهّر نفسه بمثل هذه المشاعر.

ويؤكد أرسطو أن المأساة يجب أن يكون لـــــها بدايـــة ووسط ونهاية ، بحيث تبدأ وتتطوّر بطريقة متّسقة وتكون لها نتيجة حاسمة. أي أنها لابد أن تكون مكتملة تكتفي بذاتها.

وللحجـــم أهميّتـــه ، لأن الذهـــن يـــتراخى إذا كـــانت المسرحية أطول مما ينبغي ، أما إذا كان قصرهـــا مفرطـــاً، فإنها لا تثبت في الذهن.

والعلة الغائية للمأساة هي تنقية الـــروح عـــن طريـــق تطهير الانفعالات . فعن طريق تجربة الانفعالين البديليـــن ، انفعالَي الرهبة و الشفقه، تزيح النفس عن ذاتها هذا الحمـــل. وعلى ذلك يكون للمأساة هدف علاجي.

أما العقدة المسرحية فهي ضرورية ولا وجود للمسرح بدونها. أما الحدث فهو نوعان : أولهما التحوّل المفاجئ فـــي المصير، وثانيهما اكتشاف طرف غير متوقّع يؤثّر في عقـــدة المسرحية . هذه الأحداث ينبغي أن تطرأ علـــى شخـــص لا يتميّز بفضائل أرفع مما ينبغي ، و يكون انهياره ناتجـــاً ، لا عن رذيلة ، وإنما عن سوء تقديره الذي ينزل به من مكانتـــه العليا ويجعله منبوذاً.

ويشترط أرسطو ، في الشخصية المسرحية ، أن تكون مطابقة لنمط معيّن ، فلابد أن تظهر الشخصيات في صـــورة

مشابهة لما يحدث في الحياة الفعلية ، كما هي الحال في عقدة المسرحية . ومن هنا يمكننا فهم المقولة الأرسطية بأن الشعر يتعامل مع مواقف كلية ، علـــى حيـــن أن التـــاريخ يصــــف الجزئي. ففي المأساة نتعرف إلى الســــمات العامــــة للحيـــاة البشرية ، التي تضفي على العمل طابعاً موحَّداً . وإذا كــــــان أرسطو لا يعير الإخراج اهتماماً فإنّه يركّز على القيمة الأدبية للعمل.

هذا بعض ما جاء في كتـــاب " الشعـــر " لأرســـطو ، ويتضح من خلال ما أوردناه مدى التأثير الكبير الذي أحدثــــه في النقد الأدبي منذ تأليفه حتى اليوم ، ولابد أن نذكر هنا بأن أرسطو لم يشأ الحديث عن مشاعر الكاتب ومقاصده وحياته ، وإنما كان تركيزه على الأعمال ذاتها ، أي على النصوص .. وهذا يلتقي مع بعض الاتجاهات النقدية الحديثة التي تنـــادي بموت المؤلف ، ليكون النقد محايداً يسعى إلى قراءة النــــص بعيداً عن مؤثرات ليست فيه.

*   *   *

سمات المرحلة اليونانية

لقد أشرنا إلى أهميّة أفكار أرسطو العميقة في مجـــالات الأخلاق والسياسة والمنطق، والتي أثّرت في المذاهب الفلسفية اللاحقة،حتى أن بعض الباحثين قد ذهــب إلــى " أن تــاريخ الفلسفة بعد أرسطو وأفلاطون يُعتبر ألوانـــاً مــن التطويــر والتعديل، قد تنطوي على أشياء جديدة ، ولكنها تتردد دائمـــاً بين هذين القطبين."

بقي أن نشير إلى أنّ أهمّ السّمات التـــي تتّســم بـــها الفلسفة في ذلك العصر سمتان بارزتان:

السمة الأولى : هي الوثنية التي توجد فـــي صـــورة مقنّعة غير صريحة ، فإن الرأي الفلسفي القائل بـــأن النـــار أصل العالم ، له صلة وثيقة بتقديـــس النـــار فـــي الديانـــات الشعبية.

والسمة الثانية : عدم الانسجام التـــام فـــي مذهـــب الفيلسوف وآرائه ، وهذه الظاهرة تبدو بوضوح لدى أفلاطون وأرسطو ، وذلك لتأثّرهما بالمدارس المختلفة السابقة.

بعد وفاة أرسطو ، جاءت حقبة يُطلق المؤرّخون عليها اسم العصر الهلينستي أو العصر الهليني الروماني ، وهي تلك الفترة الزمنية التي تفلسفت فيها عقلية أخرى غـــير العقليـــة الإغريقية ، وهي العقلية الرومانية والعقلية الشرقية ، ذلك أنه بعد وفاة الاسكندر (سنة ثلاثمائة وثلاث وعشرين) و انقسام ملكه ، انتشرت الثقافة اليونانية في بلدان الشرق ، و حصـــل تزاوج بين الثقافة اليونانية و الثقافة الشرقية ، و تأثّرت كـــل منهما بالأخرى ، و ساهم الشرقيون في العلـــم و الفلســفة ، وقامت في الشرق حواضر علميّـــة جديـــدة فـــي مقدمتـــها الإسكندرية.

وكان من نتيجة ذلك أن اهتمّ التفكير الفلسفي بالأخلاق وتأثّر بالدّين والتصوّف . وظهرت مدارس فلســـفية كثـــيرة أهمّها الرواقية ، والابيقورية ، والأفلاطونية الحديثة ، وقـــد اصطبغت الفلسفة فـــي المدرســتين الأوليين بـــالأخلاق ، واصطبغت في الأخيرة بالدين و التصوّف . وهذه المـــدارس استمدّت كثيراً من أصولها من الفلاسفة الســـابقين، وخاصّـــة

أفلاطون وأرسطو، ومزجت بها الكثير من العناصر الأخرى، وسوف نتحدّث بإيجاز شديد عن كلّ منها.

* * *

عندما حاصرت إسبارطة أثينا وأنزلت الهزيمة بها في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد تحوّلت السيادة السياسية عن أثينا أُمّ الفلسفة اليونانية و الفن ، مما أدّى إلى انحطاط نشاط واستقلال العقل الأثيني . وبإعدام سقراط ماتت روح أثينا معه، لتتريث قليلاً في تلميذه الفخور أفلاطون . ثم هَزم فيليب المقدوني الأثينيين ، وأحرق الاسكندر مدينة طيبة العظيمة بعد ذلك بثلاثة أعوام . إن سيادة أرسطو المقدوني على الفلسفة اليونانية تعكس خضوع اليونان السياسي لشعوب الشّمال الشُجاعة الفَتيّة ؛ و قد سارع موت الاسكندر بهذا الانحلال اليوناني . لقد بقي الاسكندر غازياً، على الرغم من جهود أرسطو في محاولة تثقيفه ، ولكنْ.. على الرّغم من ذلك فقد تعلّم توقير الثقافة اليونانية واحترامها ، وكان يحلم بنشرها في الشرق إبّان انتصارات جيوشه . لقد أوجد تطوّر التجارة اليونانية ، وزيادة المراكز التجارية اليونانية ، في جميع أنحاء آسيا الصغرى ، قاعدةً اقتصادية لتوحيد هذه المنطقة كجزء من الإمبراطورية الهلينية . واعتقد الاسكندر

بأن الفكر سيسطع من هذه المراكز اليونانية التي تخرج منها البضائع اليونانية أيضاً . ولكنه في اعتقاده هذا قلّل من أهمية قوّة الاستمرار و المقاومة في العقل الشرقي ، و أغفل جوهر وعمق الحضارة الشرقية . لقد كان ذلك من أوهـام الشبـاب فقط ، إذ من الصعب فرض حضارة لم يتـم نضوجـها ، و توطيد أقدامها و استقرار أمورها ، على حضارة شرقية أكثر اتّساعاً وأشدّ تأصّلاً في أكثر التقاليد وقاراً . فقد تغلبـت روح الشرق على الاسكندر نفسه في سـاعات أوج انتصاراتـه و تزوّج (بالإضافة إلى عدة زوجات أخرى) ابنـة داريـوس ملك الفرس ، و تبنّى التاج والكِساء الرسمي الفارسـي فـي الدولة . و استقدم إلى أوروبا الفكرة الشرقية عن حقّ الملوك المقدّس . وأخيراً فاجأ اليونان بإعلان نفسـه إلـهاً بطريقـة شرقية جليلة . وسخرت اليونان منه ، ولاقى بعد ذلك حتفـه. وتداعت السدود المنهارة أمام سيل الأفكار الشرقيـة ، التـي تدفّقت على الأراضي الأوروبية.

لقد بنى زينون فلسـفته على جبرية صارمة ، وزينون الذي لا يؤمن بنظام الرق ، عندما ضرب عبداً لـه ارتكـب ذنباً، توسّل العبد أن يخفّف من ضربه إيّاه بعد أن ذكّره بـأن فلسـفته تقول إنّه مسيّر لا مخيّر في ارتكاب ذنبه ، فأجابـه

زينون بأنه هو أيضاً مسيّر لا مخيّر في ضربه له. وكما ظنّ شوبنهور أنّ من العبث أن تحـــارب الإرادة الفرديـــة ضــد الإرادة الكليّـــة ، اعتقد الرواقيون أنّ عدم الاهتمام الفلســـفي هو النظرة المعقولة الوحيدة للحياة المحكوم على الصراع فيها بالهزيمة التي لا مفرّ منها . وإذا كان النصر مستحيلاً لذلـــك ينبغي احتقاره . إنّ سرّ السلام لا يكمن في أن نجعل منجزاتنا متساوية مع رغباتنا ، ولكنْ في خفض رغباتنا إلى مستوى ما نحقّقه من أمور . لقد قال الرواقي سنيكا الروماني: إذا كـــان ما لديك لا يكفيك، عندئذ ستكون بائساً وفقيراً حتى ولو ملكتَ العالم.

لقد اشترى أبيقور حديقة جميلة كان يحرثها ويزرعـــها بنفسه ، وأنشأ مدرسته فيها ، وعاش فيها مع تلاميـــذه حيـــاةً لطيفة سارّة مُرضية . وكان يعلّمهم و هو يمشي و يعمل ... لقد كان لطيفاً و أنيســـاً ودوداً مع جميـــع النـــاس ، و قـــال: لاشيء أنبل من تكييف الإنسان نفسَه على الفلسفة وتطبيقـــها عـــلى نفسه . واعتقد باستحالة جمود المشاعر ، وأنّ اللّـــــذة هي الغاية الشرعيّة الوحيدة للحياة و العمـــــل . إنّ الطبيعـــة تسوق كلّ جسم حيّ إلى تفضيل خيره على كل خـــير آخـــر. وهو يمجّد مسرّات الفكر أكثر من مسرّات الحسّ الأخـــرى ،

ويحذّر من اللذائذ التي تهيّج النفسَ وتزعجها ، وفي النهايـــة يقترح أن لا نبحثَ عن اللّذة في معناها العادي ، ولكنْ فـــي هدوء واتّزان العقل وراحته وهجوعه.

وعندما قام الرومان بنهب هلينيا في عام مائة وســتة وأربعين، وجدوا هذه المدارس المتنافســة تتقاسـم المَيـدانَ الفلسفي . وبما أنّ الرومان لم يكن لديهم الوقت والفــراغ أو المقدرة على التأمل و التفكير بأنفسهم ، فقد عادوا بهذه الآراء الفلسفية مع جملة مغانمهم إلى روما . وهكذا فقد كانت الفلسفة السائدة في روما تقريباً فلسفة زينون الرواقية.

* * *

أمّا بالنّسبة إلى الميادين الأخرى فــإنّ أعظــمَ نجــاحٍ أحرزه اليونانيون، كان على الأرجح في ميدان الفلــك. وقــد تحدثنا من قبل عن بعض هذه الإنجازات عند مناقشتنا لفلاسفة متعدّدين . على أنّ أعظم إنجاز تحقّق في هذه الفــترة هــو كشف نظرية مركزيّة الشمس. إذ يبــدو أن أرسـطارخوس الساموسي ، وهو معاصر لإقليدس ، كان أولّ من عرض هذا الرأي عرضاً كاملاً مفصّلاً . وجوهر هذه النظرية هو القول إن الأرض و الكواكب تدور حول الشمس التي تظلّ ثابتة هي والنجوم ، وأن الأرض تدور حول محورها مع سيرها فــي مدارها . وكان هراكليدس ، وهو أكاديمي ينتمي إلى القــرن

الرابع ، قد عرف أن الأرض تدور حول محورها مرّة في اليوم ، على حين أن بيضاوية المدار كانت كشفاً ينتمي إلى القرن الخامس . وعلى ذلك فلم تكن نظرية أرسطارخوس ابتكاراً خالصاً . ومع ذلك فقد كانت هناك خصومة ، بل عداوة ، تجاه هذا الخروج الجريء عن النظرة السائدة لدى الإنسان العادي في ذلك الحين ، ولابد أن نعترف بأن خصومها كانوا يشتملون حتى على بعض الفلاسفة ، وذلك لأن إزاحة الأرض عن مركز العالم لابد أن تؤدي إلى هدم المعايير الأخلاقية القديمة . وهكذا فإنّ الآراء غير المألوفة، عن الشمس والقمر والنجوم ، تكون لها في بعض الأحيان خطورة الآراء الرافضة في السياسة . ويبدو أن أرسطارخوس أصبح بعد هذه الأزمة يعبّر عن آرائه بقدر أكبر من التحفّظ . وقد أدى الرأي القائل بأنّ الأرض تتحرّك، إلى إثارة المشاعر الدينية في مناسبة أخرى مشهورة ، عندما اعتنق جاليليو نظرية كبرنيكوس. وينبغي أن نلاحظ أن كبرنيكوس قد اقتصر على إحياء أو إعادة اكتشاف نظرية الفلكي اليوناني الذي عاش في ساموس . وهناك ملاحظة هامشيّة تحمل اسم ارسطارخوس في أحد مخطوطات كبرنيكوس ، تشهد على هذه الحقيقة على نحو قاطع . أما عن

قياس الحجوم و الأبعاد النسبيّة في داخل النظام الشمسي ، فإن النتائج لم تصل كلُّها إلى القدْر نفسه من النجاح . فأفضل تقدير للمسافة بين الأرض والشمس كان يبلغ حوالي نصف المسافة الحقيقية . أما بُعد القمر فقد تمّ حسابُهُ بقدْرٍ معقول من الدقّة.

على أن الكثير من هذه المعلومات قد نُسي بسرعة ، وذلك أساساً لأنها كانت تتعارض مع المعتقدات الدينية في ذلك الحين . ومن المفهوم بوضوح أن الفلاسفة أنفسهم قد أسهموا في ارتكاب هذا الخطأ ، إذ أن علمَ الفَلك الجديد كان يهدّد بالقضاء على النظرية الأخلاقية التي قالت بها الحركة الرواقية . وقد تدفع هذه الحقيقة المراقب المحايد إلى أن يعلن أن الرواقية مذهب سيئ ، ومن ثَمَّ ينبغي التخلّي عنه . غير أن هذه نصيحةٌ مثاليّة ، ومن المؤكّد أن أولئك الذين تُدان آراؤهم على هذا النحو لن يتخلّوا عن موقعهم بلا قتال ، والواقع أن من أندر النعم أن يكون المرء قادراً على أن يعتنق رأياً معيناً باقتناع وتجرّد في الوقت ذاتِه . وهذا ما يحاول الفلاسفةُ العلماء ، أكثر من غيرهم من البشر ، أن يدرّبوا أنفسَهم عليه ، وإن كانوا في النّهاية لا ينجحون فيه أكثر ممّا ينجح الإنسانُ العادي . على أن الرياضيات من أفضل

الوسائل التي تساعد على دعم هذا الاتجاه ، ومن هنا لم يكن من قبيل الصدفة أن عدداً كبيراً من الفلاسفة كانوا رياضيين في الآن نفسه.

إذا كان الجزءُ الأوّل من القرن الخامس قبل الميلاد. قد شهد اليونانيين يحاربون الغزاة الفرس ، فإنّ الجزءَ الأوّل من القرن الرابع قد أثبت أن إمبراطورية الملك العظيم (ملك فارس) كانت عملاقاً يرتكز على أقدام من الفَخّار.

وبحلول عهد الاسكندر الأكبر ، انتقل العالم اليوناني إلى مرحلة الهجوم ، وأصبح العالمُ كلُّه ، خاضعاً خلال فترة قصيرة من الزمان لحاكم واحد هو الاسكندر ، الذي كان ينظر لنفسه على أنّه حاملُ مشعلَ الحضارة اليونانيّة ، على الرغم من أنه كان في نظر اليونانيين أنفسِهم مجرَّدَ قائدٍ مقدونّيٍ منتصر . وكان الاسكندر يشجّع مواطنيه المقدونيين على الزواج من النساء الآسيويات ، ولم يجد غضاضة في أن يمارس بنفسه ما كان يحضّ عليه . ولكي تكون النسب محفوظة ، فقد اتخذ من أميرتين فارسيتين زوجتين له.

ومن المؤكَّد أنّ الفتحَ المقدوني أحرز مزيداً من النجاح من حيث هو ناقل للمؤثّرات اليونانيّة . فقد أخذت الحضارة

اليونانية تصبّ في آسيا . وبالمثل فإنّ الشرق مارس تـــأثيراً جديداً على الغرب.

أما من الوجهة الثقافية ، فقد انتشر التخصص على نحو متزايد . وعلى حين أنّ كبـــارَ الشخصيّـات فـــي العصـــر الكلاسيكي كانوا يستطيعون ، بوصفهم أفـــراداً فـــي دولـــة المدينة، أن ينتقلوا بين موضوعات شتى ، حســبما تقتضيــه الظـــروف ، فإنّ باحثي العالم الهلينستي كانوا يقتصرون على ميـــدان واحد محدّد . وانتقل مركز البحث العلمي من أثينـــا إلى الإسكندرية ، وهي انجح مدن الاسكندر الجديدة ، وملتقى العلماء والكُتّاب من كافّة أرجاء العالم.

ولقد أدّى الإحساس المتأصل بانعدام الأمان إلى الإقلال من الاهتمام بالشؤون العامة ، وإلى هُزال عامّ فـــي الكيـــان العقلي والأخلاقي.

وبانتهاء العصر الذهبي لدول المدن ، أُصيـــب العـــالَم اليوناني بهبوط عام في نضارته وحيويته ، والواقـــع أنـــه إذا كانت هناك صفة بارزة يشترك فيها كل الفلاســـفة الأثينييـــن الكبار ، فهي موقفهم الإيجابي المقبل على الحياة . فلم يكـــن العالم في نظرهم مكاناً سيئاً للعيش ، والدولة يمكن الإحاطـــة بجميع أطرافها في لمحة واحدة . وقد اتخذ أرسطو من هـــذه

الصفة ، كما رأينا ، واحدة من صفات مدينته المثلى ، غير أن التوسع المقدوني أدى إلى زعزعة هذه النظرة السعيدة الراضية ، وانعكس ذلك في كل الاتجاهات الفلسفية السائدة في تلك الأيام على صورة تشاؤم شامل وإحساس بانعدام الأمان . أما الشعور بالثقة الذاتية ، الذي كان يتملّك المواطنين الأرستقراطيين من أمثال أفلاطون ، فقد اختفى إلى غير رجعة.



بين بيرون و زينون

يمكن القول إن موت سقراط كان هو الحد الفاصل في الثقافة اليونانية . صحيح أن أعمال أفلاطون ستظهر بعد ذلك، غير أننا بدأنا نهبط إلى وديان الثقافة الهلنستيّة ، وبدأ يظهر في الفلسفة عدد من الحركات الجديدة.

فقد عاش ديوجين حياةً تماثل حياةَ الكلب في بدائيّتها ، مما أكسبه لقب " الكلبي " . و كان جوهر التعاليم الكلبية هو الانصراف عن المِتع الدنيويّة والتركيز على الفضيلة بوصفها الشيء الوحيد الجدير بأن نمتلكه ، ومن الواضح أن هذه إحدى الأفكار الموروثة عن مذهب سقراط ، غير أنّها تمثّل ردّ فعلٍ سلبيّاً إلى حد ما على أحداث العالم . صحيح أنّه كلّما ضَعُفَت روابطُ المرء بالعالم قلّ احتمالُ إصابته بالأذى أو خيبة الأمل ، غير أن مثلَ هذه المنابع لا يُتوقّع منها أن تُلهمَ المرءَ أيَّ شيء يزيد عن ذلك ، ولقد تحوّل المذهب الكلبي، بمضيّ الوقت، إلى تراث قوي واسع الانتشار ،

وأصبح له في القرن الثالث قبل الميلاد تأييد شعبيّ واسع في جميع أرجاء العالم الهلنستي . وبالطبع فإن كل ما يعنيه ذلـك هو أن شكلاً متدهوراً من التعاليم الكلبية أصبح يعبر بصـدق عن الأوضاع الأخلاقية للعصر ، وكان ذلك نوعاً من الموقف الانتهازي من الحياة، يغترف منها بكلتا يديه إن كان هناك ما يؤخذ، ولكنّه لا يشكو في أوقات العسر ، ويسـتمتع بالحيـاة حين يُمكنُ الاستمتاعُ بها، ولكنّه يقبل صروفَ الدّهـر بغـير اكتراث.

وهناك نتاج آخر ، مختلف إلى حدٍّ ما ، لفترة التدهـور الفلسفي هذه ، هو حركة الشكّاك ، وإذا كان اسم هذه الحركة مستمَدّاً من مجرّد الشك أو الارتياب ، فإنّ المذهب ، بوصفه فلسفة ، يرتفع بالشك إلى مرتبة العقيدة الراسخة . فهو ينكـر أن يكون في وسع أيّ شخص أن يعرف أيّ شـيء معرفـة يقينيّة ، ولكنّ المشكلة بالطبع هي أنّ المرءَ يودّ أن يعرف من أين جاء الفيلسوف الشّكّاك بهذه المعلومة . فكيف يعـرف أنّ الأمر كذلك إذا كان موقفه ينكر صراحةً إمكانَ المعرفة ؟

ولقد كان أوّل الفلاسفة الشُكّاك هو بَيرون ، الذي طاف العالم مع جيوش الاسكندر ، ولم تكن التعاليم الشكّاكة شيئـاً جديداً ، لأننا رأينا الفيثاغوريين والايليين من قبـل يُثـيرون

الشكوك حول إمكان الثقة فـــي الحــواس، علــى حيــن أن السفسطائيين استحدثوا مفاهيم مماثلة اتّخذوها أساساً لنسبيّتهم الاجتماعية والأخلاقية ، غير أن أحداً من هؤلاء المفكّرين لم يجعل من الشك في ذاته قضية رئيسية.

كان بَيرون أقدم الشُكّاك ، وهؤلاء اعترفوا بعدم العثور على مقياس أكيد للحقيقة . فالمذاهب الفلسفية يناقضُ بعضُــها بعضاً ، وكلّ قضيّة تحتمل السلب و الإيجاب ، لذلك فإنـــه لا مفر من التوقّف عن إصدار الأحكام . أي على الفيلسوف أن يجيب بـــ (لست أدري) ، على الأسئلة التي تُوجَّـــه إليـــه . ومن هنا جاءت اللاأدرية التي تـــرى أن الحـــواس عرضـــةٌ للضلال والخطأ لا يمكن أن تُتَخَذَ إمامــاً وهاديــاً . كمـــا أن التقاليد ليست بأحسن منها حـــالاً لأنـــها تختلـــف بـــاختلاف الأوطان، وليس للعقل قدرةٌ مطلقة . ويتساءل الريبيّون عمّـــا إذا كان يجب علينا أن نصدّق الكذّاب الذي يعترف لنا بأنـــــه كذّاب ؟ . كما أنه لا يمكن التميـــيز بيـــن الواقـــع والحلـــم : فالوحش الذي يطاردنا في الأحلام ليس أقلّ ترويعاً لنـــا مـــن وحوش الغابة . أما مدرسة الإسكندرية قـــد نشـــأت بعـــد أن استقرّت الحضارة اليونانية في مصر بعد فتح الاسكندر لها ، ونشأت فيها مراكز علميّة برز خلالها اقليدس وأرخميـــدس ،

وفي الفلسفة برز أفلوطين، وعرفت مؤلفاته بـ " التاسوعات " وترجم له العرب كتاب " الربوبيّة " . ونتج عن ذلك أن حاول الفلاسفة العرب التوفيق بين أفلاطون وأرسطو وهم في واقع الأمر يوفّقون بين أفلاطون وأفلوطين المتشابهَي المذهب . وتُنسب نزعة الأفلاطونية المحدثة إلى أفلوطين . اشتهر أفلوطين بنظريّته في الفيض ، فالله عنده هو الواحد أو " الأوّل " وهو ينبوع الوجود ومبدأ الكل، وبما أنّه كمال مُطلَق فهو لا يحتاجُ إلى شيء، وهو لا يخضع للضرورة في خلقه للكون ، بل إنه أبدعَ هذا الكونَ عن جودٍ وطيبٍ وإحسان . فهناك قانون نرى من خلاله أنّ كلّ من يبلُغ الكمالَ من الكائنات يُنجبُ كائناً آخر مشابهاً له . فالنار تبعث الحرارة، و الزهرة لا تُمسك أريجَها عن أحد . وقد تشعّبت الافلاطونية الجديدة إلى ثلاثة فروع : فرع الإسكندرية، وفرع سورية ، وفرع أثينا.

وقد أغلق الإمبراطور جوستنيان مدارس الفلسفة في أثينا وكانت الفلسفة قد فقدت مكانتها في الإسكندرية . وانتهت بذلك الفلسفة اليونانية التي وصلت إلى العرب ، فيما بعد ، عن طريق الترجمات لمؤلّفات أرسطو وغيرِه من الفلاسفة.

المسألة الأولى التي ستثيرها الفلسفة الروحيــــة ومــن بعدها الفلسفة الإسلامية هي علاقة الدين بالفلســفة ومحاولــة التوفيق بينهما . فإلى جانب المتديّنين المنكريــن للفلســفة أو الفلاسفة المنكرين للدين ، نجد التيّار الــذي يحــاول إغنــاء العقيدة بالفكر أو تلقيح الفكر بمعطيات الإيمان الروحيّة.

* * *

بعد تأسيس الحضارات الأولى وإرساء دعائمها، مــرّت الإنسانية بفترات جدب كــان ســببها المعــارك والكــوارث الطبيعية التي جعلت الأفكار في ارتداد انكفأ أصحابها لمعالجة جراح ذويهم، واكتفوا باجترار الماضي كاتّكاء لابُدّ منه حتى تبزغَ شمس أفكار جديدة وسط ظروف سانحة للتقدّم، لذا، نمرّ معاً بشكل سريع على الفترة الواقعة بين ثلاثمئة قبل الميــلاد والقرن السابع الميلادي حيث أشرق فجر الحضارة العربيــة الإسلامية. وحتّى ذلك الحين نلمح أفكاراً قليلة كان لــها دور في تغيير العالم أو في تغيير نظرة الإنسان إليه. ومــن بيــن الذين ظهروا في ذلك الوقت، أرخميدس.

كان أرخميدس عالماً يونانياً شهيراً عاش حوالي ســنة مئتين وخمسين قبل الميلاد. وقد حدث أن أمر ملك سيراكوس بصنع تاج جديد له من الذهب الخالص، فلمّا تمّ صنعه، ساور

الملك الشكّ في أن يكون الصانع قد أضاف إلى الذّهب قليلاً من معدن آخر، فاستدعى أرخميدس وأمره أن يتحقّقَ من صفاء الذّهب دون أن يكسرَ التّاج.

وبينما كان أرخميدس يستحمّ واتته الفكرة التي يستطيع بها أن يتحقّق من الأمر، فخرج من الحمّام عارياً وأخذ يعدو إلى بيته وهو يصيح: يوركا .. يوركا .. أو أوريكا .. أوريكا.. أي : وجدتها .. وجدتها. وبدأ أرخميدس بوزن التاج في الهواء كالمعتاد، ثم وزنه وهو مغمور تحت الماء. ومن الطبيعي أن يقلّ وزنه وهو في الماء عن وزنه في الهواء، والفرق بين الوزنين هو وزن الماء المزاح. ومنه استطاع أرخميدس أن يحسب مقدار زيادة وزن المعدن الذي صُنع منه التاج عن وزن الماء، وبذلك تمكّن من التحقّق مما إذا كان وزن التاج هو وزن الذهب الخالص نفسه أو أقل، واكتشف أن الرصاص قد أضيف إلى الذهب في التاج، لأنّ وزن الذهب أكبر من وزن الرصاص.

بحث أرخميدس في مجالات الهندسة والحركة والثوابت المائية، وساعدت نظريّاتُه غاليليو ونيوتن وغيرهما من العلماء.

أمّا الامبراطور الروماني نيرون فقد أصبح كسلفه كاليغولا مجنوناً تماماً. كانت بداية حكمه جيّدة، ولكنّه كان ضعيفاً، سهل التأثّر بأمّه، اندفع في الطغيان والفسوق، وقد تكون النار العظيمة التي كادت تدمّر روما، قد بدأت بأوامره. وحتّى لو لم تكن كذلك فكما تقول الأسطورة، وقف يتأمّل الحريق وهو يضرب على قيثارة. اندلعت النار في عدة متاجر، وما لبثت أن توهّجت بعنف بالغ، وبينما كان هو يحاول أن يكتب قصيدة يصف فيها الحريق، انشغل الجميع في إخماده.

وهذا مادعا الشاعر محمود درويش إلى الاستعانة بتلك المشهدية التي تشبه الكسوف فقال:

يادامِيَ العينين، والكفّين
إنّ الليلَ زائل
لاغرفةُ التوقيف باقيةٌ
ولا زَرَدُ السلاسل
نيرون مات، ولم تمت روما
بعينيها تقاتل
وحبوب سنبلةٍ تجفُّ ..
ستملأُ الوادي سنابل ...

وبالفعل، فقد قامت ثورة عارمة على نيرون ممّا دعاه إلى الانتحار بعد أربع سنوات من نشوب الحريق في روما.

أمّا بطليموس الاسكندري فقد كان واحداً من أذكى الرجال، الذين عملوا في دراسة الثقافات القديمة، والرياضيات، والفلك، والجغرافيا.

من اكتشافاته المدهشة نظريّة انكسار الضوء، وفي الرياضيات البحتة يعود إليه الفضل في شرح علم المثلثات. كما كتب عدّة أعمال في الموسيقى، منها كتاب " الهارمونيكا " كما أنّه دوّن وجهة النظر اليونانية القديمة عن الكون، التي تضع الأرض في مركز الكون حيث يدور القمر، وعطارد والزهرة، والشمس، والمريخ والمشتري وزحل، حولها، وتتبعها كرة من النجوم الثابتة - وهي نظريّة بقيت مقبولة أكثر من ثلاثة عشر قرناً من الزمان. وأكثر مايُذكر به بطليموس هو علم الخرائط، حيث تألّف عمله العظيم من مجموعة ست وعشرين خريطة عامّة للعالم المعروف آنذاك.

أمّا جالينوس فقد جلبت له مهارته الطبيّة حظورة إمبراطورية، فكان الطبيب الخاص للإمبراطور ماركوس اريليوس وكومودوس.

كتب عن تجاربه الطبيّة فدرس الأطباء ماكتب عدّة قرون.

وقصّة الطبّ تستحق أن نقف عندها، لمعرفة الأفكار الجديدة التي تطوّرت بالتتابع وصولاً إلى الصورة التي نرى عليها العلاج في أيّامنا هذه.

الطب

نبدأ قصّة الطب مع شريعة حمورابي ، التي نظّمت صِناعةَ الطِبّ فحددّتْ أُجورَ الأطبّاءِ ، وجَعَلَت الأطبّاءَ مسؤولينَ عن الأخطاء التي يرتكبونها ، ثم فَرَضَتْ عُقوبةً على المرَاضع اللواتي يُقصّرْنَ في العِناية بالرُضّع الذين يُعْهَدُ إليهنّ بِهِمْ.

ووَصَلَتْ إلينا مِئات الألواح التي تَبْحثُ في الطِبّ والعلاج ، كانت في مكتبة ثَوْرِ بْنِ بَعْلٍ، المعروف عند الأوروبيين باسم آشور بنيبال . وعَرَفَ البابليّون التشريح كما عَرَفوا أنواعاً من التشويه ، تَطْرأ على الإنسان والحَيَوان . ودَرَسوا الكَبِدَ دراسةً مفصّلةً، لاعتقادهم أنّه رئيس جميع الأعضاء والمُسَيْطِرُ عليها ، وأنّه مَرْكَزُ العاطفةِ. وكان القلبُ عندهم مركزَ العقل . وعرَفَ الصينيّون الصِلةَ بين اختلاف النَبْضِ وبين الأعراض التي تطرأ على البدن بانحراف الصحّة . ثمّ لاحظوا أنّ أمراض الصَدْرِ تكثُرُ في الشتاء ،

وأنّ الربيعَ يزيدُ في الأعراض العَصَبيّة ، وأنّ الأمراض الجلديّة تَهيجُ في الصيف، وأنّ الخريف زمن الحُميّات.

أمّا المُداواة عند الصينيّين، فكان مَرْجِعُها الأوّل إلى الوسائل الطبيعية، من الاستشفاء بالماء والعيشة في الخَلاء وتناوُل الأشربة النباتية البسيطة ، وإلى الحِجامة . وقد شغَلَ الصينيون أنفسَهم كثيراً بالبحثِ عن العقاقير التي تُطيل الحياة. واهتمّ الهنود أيضاً بالمداواة الطبيعيّة وبالوقاية من المرض، إلى جانب أشياء من الطبّ المِزاجيّ والجراحة. ولكنّ جُلّ اهتمامهم كان بالطِبّ الروحانيّ ، إذ اعتقدوا أنّ اليوغا تساعد على صحّة البدن، كما تعمل على تهذيب النفس . واليوغا رياضةٌ تقوم على اتخاذ هيئةٍ خاصّةٍ في الجلوس مع تركيز الفكر في أمرٍ مُعيّنٍ ، ثمّ تؤدّي إلى قوّةٍ في الإرادة غايتُها السَيْطرة على الشعور النفسانيّ والتحكُّم في أجْهِزَةِ الجسم ، حتّى قيل إنّ المُرتاضَ باليوغا يستطع أن يَقِفَ قلْبَه عن النَبْض فَتْرةً يسيرةً . ولا ريب في أن جميع أنواع الرياضة البدنية تساعد على التغلُّب على نواحٍ من الاضطراب العَصَبيّ والقلق النفسيّ.

وأوّلُ منْ وَصَلَ إلينا اسمهُ من أطبّاء اليونان أسقليبيوس الذي بلغ أشُدَّه في القرن السابع قبل الميلاد . وكان أسقليبيوس

مُوَفقاً في التطبيب فوثق به الناس، واشتُهر أمره بينهم . واتّخذ أسقليبيوس رمْزاً لصناعة الطبّ : عصاً متعرّجةً تلتفُّ عليها حيَةٌ . وأمّا العصا فللدلالة على كثرة الأمراض وكثرة طرائق المُداواة . وأما الحيّة فللدلالة على الحكمة واليقظة اللتين يجب على الطبيب أن يتحلىً بهما ، وهاتان صفتان موجودتان في الحيّة . ثمّ إنّ الحيّة طويلةُ العمر ، وسُمُّها يدخل في علاج عددٍ من الأمراض . وعلّمَ اسقليبيوس أبناءه صناعة التطبيب وأمرهم بأن يكتموها عن الناس. ومنذ نحو عام خمسمائة ق.م، كان للطبّ في اليونان مذهبان : مذهبٌ يهتمُّ بالعمل على شفاء المريض ، بقطْع النظر عن نوع المرض الذي يشكو منه المريض ، لأنّ أصحابَ هذا المذهب كانوا ينظرون إلى جميع الأمراض على أنّها مرضٌ واحد . من أجل ذلك كانوا يهتمّون بالتشخيص الحَدْسِيّ ، ويمرُّ المريض عند هؤلاء في ثلاثة أدوارٍ (دور الحضانة للمرض أو بدء ظهور أعراضه ، ودور اشتداد المرض ، ودور النقاهة الذي يمكن أن يُؤدّيَ إلى الشفاء أو إلى انتكاس حالة المريض) ، ثمّ كان هنالك مذهب الذين يهتمّون بالتشخيص الوَصفي (أي معرفة نوع المرض قبل البدء بمعالجة المريض).

ويرجع الفضل في إقامة الطب على قاعدةٍ مزاجيّةٍ (طبيعيّة، عِلْمية) وفي تعليم الطب لجميع الناس إلى أبُقْراط الذي أخذ بنظريّة الطبائع الأربع ، وهي أنّ في الجسم أربع طبائع (البرودة والحرارة واليبُوسة والرطوبة) تُمثّلها الأخلاط الأربعة (البلغم والدم والسوداء والصفراء) مُقارنةً للعناصر الأربعة . فمادامتْ هذه الأخلاط متكافئةً في الجسم ، فمزاجُ الجسم معتدلٌ والجسم صحيحٌ . أمّا إذا غلب أحد هذه الأخلاط على غيره ، فإنّ المزاجَ حينئذٍ ينحرف ويصبح الجسم كله منحرف المزاج ، مريضاً.

وكان أبُقْراط من أتباع مذهب التشخيص الحَدْسيّ ، يعتقد أنّ الطبيب يجب أن يكون فيلسوفاً ومُلمّاً بعلومٍ كثيرةٍ كالفلك والموسيقى وعلم الطبيعة وعلم تركيب أجسام الإنسان والحيوان . ثم أدرك ابقراط أنّ الصحّة والمرض يتناوبان على الإنسان والحيوان والنبات، وأنّ المداواة قياسٌ وتجْرِبَةٌ . فإذا داوى الطبيب مريضاً فَبَرِيءَ من مرضه، فيجب على الطبيب أنْ يداوي كلَّ مريض آخر بذلك المرض ، بالدواء الذي داوى به المريض الأوّل . وأمّا الأمراض التي لم يعرفها الطبيب من قبل فإنّه يجتهد في مداواتها بتجربةٍ بعد تجربةٍ.

والمعالجة تبدأ بالتدبير (أي بالحمية والعناية العامّة).
ويرى أبقراط أنْ يُداوى كلُّ عليل بعقاقير بلاده . وأدرك أيضاً أثر العامل النفسانيّ في الشفاء ، فقد دخل يوماً علـــى عليـــل فقال له : أنا وأنت والعلّةُ ثلاثة . فـــإنْ حـــالَفْتَني عليـــها أي (أطعْتَ أمْرِي في التقيّد بالعلاج) غلبناها ، وإنْ حالَفْتَها عليّ غلبْتُماني ، ثم غَلَبَتْك هيَ.

ولأبقراط عهدٌ وقَسَم كان يأخذه على المتعلّمين قبـــل أن يبوحَ لهم بأسرارِ التطبيب . وهذا العهد يقول)) : إنّـــي أُقْسِمُ بالله ربّ الحياة والموت وواهبِ الصحّة وخالق الشفاء.. أنْ أفي بهذه اليمين ، وأنْ أعُدَّ الذي علّمني هـــذه الصناعـــة بمنزلةِ آبائي وأواسيه في معاشي ، وإنْ احتاج إلـــى مـــالٍ ، واسيتُه من مالي ... وأقْصِدُ في جميع التدبير ، بقدْر طاقتي ، منفعة المَرْضَى . وأمّا الأشياء التي تُضِرُّ بهم ، بحسب رأيي، فلا أفْعلُها . ولا أعطي دواءً قتّالاً ولا أُشير به . ولا أُدني من النساء فرزجةً تُسقِطُ الجنين . وأحفظ نفسي في تدبيري على الطهارة (والأمانة) . ولا أشُقُّ مثانةَ أحدٍ (إذا لم يكـــن مـــن اختصاصي) ، ولكنْ أتركُ ذلك لمن كان هذا العمل حِرفةً له. وأدْخُل إلى جميع المنازل لمنفعة المرضى فقـــط ولا أقصـــد إيقاع ظلم أو فسادٍ بأحدٍ . وأما ما أراه و أسمعه في أوقـــات

علاج المرضى وفي غير أوقات علاجهم – ممّا يتعلّق بحياة الناس وتصرّفهم – فلا أتكلّم به أبداً ..)) و لا يزال المتخرّجون في الطب يقسمون هذه اليمين في صيغة قريبة من هذا الأصل في حفل توزيع الشهادات . وكان الأطبّاء ، نحو عام مئة للميلاد ، فريقين كبيرين:

كان فريقٌ منهم يداوي مداواةً عامّة : إذا أصيب أحدٌ في عضوٍ من أعضاء جسمه داووا جسمه كلّه لاعتقادهم أنّ الجسم إذا قوي تغلّب على كلّ مرض في كلّ عضو من أعضائه . وكان الفريق الآخر يكتفي بمداواة العضو المريض وحده.

وأشهر الأطبّاء القدامى عند العرب جالينوس . كان جالينوس بارعاً في التشريح ، وكان يرى أنّ علم التشريح ضروريٌ في جميع فروع الطبّ ، وركنٌ أساسيّ في المداواة. ولجالينوس كلامٌ في تشريح القلب والدماغ ، مَزَجَ فيه العلم بشيء من الخيال . ويُحكى عن براعته في التشريح ، أنّ رجلاً جاءه يشكو إليه فقدان الحركة في الخنصر والبنصر والوسطى من أصابع يده . فعالجه بمداواة ما بين كتفيه ، لأنّ العصَب الذي يأتي إلى هذه الأصابع –كما قال جالينوس – يخرج من أوّل خرزةٍ بين الكتفين . وقد عَجِبَ كثيرون من

زملاء جالينوس من أنّ علاج ما بين الكتفين تبرأ منه الأصابع ! ولم يتقيّد جالينوس في التطبيب بمذهب واحدٍ من المذاهب التي كانتْ سائدةً في أيّامه، بل كان يعالج كلَّ مريضٍ يأتي إليه بالطريقة التي يراها أفضل له . ثمّ كان يهتمُّ كثيراً بالنبْض وبدلالته على الأمراض، وبقارورة الماء أي (النظر إلى بول المريض) . وقد عالج جالينوس عدداً من المرضى فشفاهم بعد أن عجز أطبّاء كثيرون عن شفائهم ولجالينوس فضلٌ في انّه حاول أن يجعل التطبيب علماً تجريبياً قائماً على أسسٍ عقليّة.

أما في الصين وفي سلالة الهان التي امتدت من مئتين قبل الميلاد حتى مئتين وعشرين ميلادية ، قيل إن معظم الاختراعات قد حدثت خلال تلك الفترة ، أكثر من أي وقت آخر في تاريخ العالم . كانت البوصلة إحدى هذه الاختراعات، حيث لاحظ الصينيون أن برادة الحديد الممغنطة تتّجه نحو خط شمالي عندما تُعلَّق بخيط . واكتشفوا المسحوق المتفجّر الذي يُصنع من نترات البوتاسيوم والفحم والكبريت (البارود) . ولكنّهم استعملوه فقط لصنع الألعاب النارية في الاحتفالات . كما ظهر الحبر والورق لأول مرة خلال تلك الفترة ، وقد استُعمل الورق خلال القرن الميلادي الأول ،

بدلاً من القماش الحريري. كما تمّ تحسين الأدوات الفلكيـــة . وقد استعمل فلكي في ذلك العصر، لأوّل مرّة، طاقـــةَ المـــاء لإدارة ((المبيان)) (وهي أداة تبيّن حركات ومواقع الكواكب في النظام الشمسي) ومنه نشأت الساعة الحديثة جرت كـــل هذه الاختراعات في وقت تم فيه التوسع الكبـــير . وكـــانت تجري تجارة ثابتة مع الشرق الروماني بطريق البّر والبحر . كما دخلت البوذية إلى الصين، لتصبح دين الدولة .

* * *

بعد ذلك نرى القديس أوغسطين يكتب ((مدينة الإله)).

ولد القديس أوغسطين من أبوين رومانيين في تونس ، ورغم أنّهما كانا مسيحيين إلاّ أنّه لم يصرّح بعقيدته خلال ســـنواته الأولى . ثم قَبِل المسيحية ، عندما بلغ الرابعـــة والثلاثيـــن ، ولقد درس ليصبح كاهناً . من أعماله الأولى ((اعترافات)).

* * *

كما كانت هناك حضارة عظيمة تحتلّ جنوب أمريكا ، هي حضارة المايان ، الذين بدؤوا في عام ثلاثمئة للميـــلاد ، بالهجرة شمالاً للبحث عن مكان أكثر ملاءمة لإعـــادة بنـــاء حضارتهم ، وقد شاعت تلك الهجرات في تلك الأيام الغابرة، لأنهم لم يتعلّموا كيف يُخصبون التربة ، حتّى أنّهم يضطرون

إلى الانتقال عندما لا تنمو محصولاتهم . واختـــارت إحـــدى العشائر المايانية الثمانية عشرة مكاناً في المكســيك ، يدعـــى تشين إتزا ، ولم تكن كغيرها من المدن التي تؤسَّس قرب أو بجانب الأنهار ، لتلافي القحط والجفاف.

ولكنّهم عُرفوا بعكس ذلك تماماً ، حيث بُنيت مدينتُهم فوق حجر كلسي ، فترشح مياه الأمطار لتتجمّع سواقيَ تحت الأرض . وقد بنى المايـــانيون خزّانـــاتٍ كبـــيرة محتفظيـــن لأنفسهم بماء عذب بارد طوال العام.

* * *

في عام ستمئة وخمسين ميلاديّة تمّ ابتكار الرسم على الألواح الخشبية . وكان أهمّ ابتكار خرج من الصين في هذا الوقت هو الرسم على الألواح الخشبيّة البسيطة ، الذي تطوّر خلال حكم سلالة تي آنغ . يُحتّ الخشب المحيـــط بالرســـم، بحيث يبدو الرسم بارزاً . ثم تُحـــبَّر الألـــواح بعدهـــا، مـــع استعمال بعض الضغط ، ثم تطبّق على الورق للطباعة.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من الجاهلية إلى الإسلام

في عصور الانحطاط والظلام، لم يكن للفكر الأوروبي تأثيرٌ واسع النطاق ، وكأنّها فترة استراحة المحارب بالنّسبة إلى الفكر البشري . وفي ذلك الوقت بالذات لم يكن للعرب ، قبل اتّصالهم بالحضارة اليونانية،فلسفة معينّة ، ولم يكن الإسلام قد جاء بعد . واقتصرت البيئة العربية البدويّة على أفكار مستنيرة متناثرة.عاش العرب في الجاهلية متنقّلين حيث يجدون الماء و المرعى ، في ظل قبائل متفرّقة . ولكنّ هذا لا يعني تقصير ذلك الفكر وعجزه ، فعلى الرغم من الجاهلية ، وبداوة العيش ، كانت تلك الحضارة تتمتّع بنشاط واتّصال وثيق مع حضارات العالم ، سيما وأنّ المنطقة قد شهدت اكتشافات متعددّة . والجزيرة العربية ، في تلك المرحلة ، كانت مسرحاً لكثير من الديانات والمذاهب الفكريّة. وفي أواخر ما اصطُلح على تسميته (العصر الجاهلي)، أخذت مواسمُ الحج الوثنيّة وسوق عكاظ، تجمع بين العرب

والغساسنة والفرس واليهود والنصارى ، وازدهرت تجارتهم في اليمن الشمالي والحجاز ، فاتّسعت آفاق العرب الفكريّــة، وبرزت فيهم الحكمة الفطريّة، كما هو بيّن في بعض معلّقات الجاهليّة . حيث نجمت حكمتهم عن تأمّل وتجربة ، واتضحت في الأمثال المتداولة التي تسير بين الناس لما فيها من حكمة وبُعد نظر.

إن معلّقات الجاهليّة ، وما ورد في أشعــــار طَرَفــة وزهير وعنترة ، تعبّر عن حكمة تحاول أن تخرج من إطـــار التجربة الفردية إلى حيّز الشموليّة والتعميم.

لم تصلنا من الجاهلية مادةٌ مكتوبة ، ولكنّ ما وصلنا عنهم ، تداولاً شفوياً ، يُثبــــت أن أدبــــهم الوجدانـــي امتـــاز بومضات فكر عميق ، كما أنّهم أتقنوا معرفة الفلك ، وكـــانت لديهم معارف طبيّة بدائية مُزجت بالأساطير . لكنّ التفكـــــير العميق لم يبدأ إلاّ بعد الإسلام . إن الدعوة الإسلامية جعلـــت العرب يتأمّلون في الله ، وجودهِ وصفاته ، وفي خلود الروح وبعثها . وكان مرجعُهم الوحيد هـــو القـــرآن الكريـــم، ولأنّ القرآن الكريم بيّنَ أن الإسلام دين ودنيا ، وسّـــع المســـلمون نطاق معارفهم . وقد ساعدهم على ذلك الفتوحات الإســـلامية التي قرّبت بين الحضارات ، حيث احتكّ العــــرب بـــالفرس

والروم والمصريين والهنود ، فكانت كلها روافد ساهمت في تقوية الفكر العربي وانطلاقه.

وإذا كان العرب قد تأثّروا باليونانيين ، فقد استطاعوا، خلال فترة ليست وجيزة، أن يمسكوا بقيادة الفكـــر العـــالمي ويوجهّوا سفائنَه حيث يشاؤون ، ونعني بذلك أنّهم هدفوا إلى التوفيق بين العقل والدين.

في البداية ظهر علماء الكلام الذين دافعوا عن العقائد الدينية بالأدلّة العقليّة . فبرز المعتزلة ثم الأشعرية ، تلا ذلك الكندي ثم الفلاسفة المسلمون . نشر اليهود في البـــلاد التـــي نزلوها في جزيرة العرب تعاليم التوراة وما جاء فيـــها مـــن تاريخ خلق الدنيا ، ومن بعث وحساب ومـــيزان ، ونشـــروا تفاسير المفسّرين للتوراة ، وما أحـــاط بـــها مـــن أســـاطير وخرافات.

وبعد فترة وجيزة جاءت المسيحية ، ولكنّها ســـرعان ما انقسمت إلى جملة كنائس أو اتجّاهات ، تسرّب منها إلـــى جزيرة العرب مذهب النساطرة ومذهب اليعاقبة.وكان القسس والرهبان يَرِدونَ أسواق العرب ويبشّرون ، فيَذْكرون البعـــث والجنّة والنّار.

وكان من هؤلاء النصارى شعراء، كقسّ بن ساعدة، وأميّة ابن أبي الصلت ، وعَدَيّ ابن زيد ، وهؤلاء لهم مسحة خاصّة في شعرهم، عليها طابع الدين ومتأثّرة بتعاليمه ، تزهد في الدنيا وشؤونها وتدعو إلى النظر في الكون والاعتبار بحوادثه . لقد جاءت المسيحية بفكر جديد أدّى إلى محاولات التوافق معه ، وتمثّل ذلك في مدرسة الإسكندرية التي تُعرف بالمدرسة الإشراقية ، نظراً إلى النزعة الروحانية التي طغت على مفكّريها.

إن المدرسة الإشراقية الإسكندرانية هي نفسها الأفلاطونية الحديثة التي سُميّت بهذا الاسم لأنّ أفلوطين كان أهمّ الذين ساهموا في إنشاء هذا المذهب الفكري ، وهو أحد الفلاسفة النصارى الذين وفّقوا بين أفلاطون وأرسطو وبين الدين المسيحي ، فكانت النظرة الإشراقية.

أنشأ أفلوطين مدرسةً علّم فيها مبادئ أفلاطون بطريقة وفّقت بين أفكاره وهذا الدين الجديد . إنّ أهمّ ما جاء به أفلوطين هو فكرة التثليث ، حيث يقرّر أن الوجود موحَّد في خالقه ، والله – الخير المطلق – أراد أن يبدع فكان أن فاض عنه العقل كما يفيض النور من الشمس ، والعقل فاض نفسَ العالم ، لذلك يكون الوجود مثلّثاً بالله الواحد ، والعقل ،

والنفس . وقد سميّت نظرية أفلوطين هذه بالفيض . لأنّ الفيض يستمر بنفوس أخرى ، تتوق كلّها إلى مصدر كل فيض ، أي الله الواحد . أمّا النفس البشرية فقد فاضت من النّفس الكليّة ، وفيضها عقاب لها إذ اتّحدت بالجسد وسُجنت فيه ، وهي تحنّ إلى عالمها الأوّل ، ولا تعود إليه إلاّ إذا تطهرّت من المادّة ، وذلك لا يكون إلاّ بالإشراق أو الانخطاف اللحظي للاتحاد بالعالم الإلهي . أُعجب المفكّرون العرب بالأفلاطونية الحديثة ، وحاولوا التوفيق بينها وبين دينهم الجديد.

* * *

يُعتبر ظهور الإسلام أهمّ حدث تاريخي وديني وفكري عرفته الجزيرة العربيّة ، بل من أهمّ الأحداث التي عرفها التاريخ الإنساني . وليس الإسلامُ ديناً وحسب ، بل هو دين وحضارة ، فكل ما ظهر في العالم الإسلامي من آراء ومذاهب يحمل طابع الإسلام ، ومن ثَمّ فلا يمكن فهم الفلسفة الإسلاميّة إلاّ بعد فهم الإسلام ، لأنّها تأثّرت به إلى أبعد حدّ ممكن . كان سكّان الجزيرة العربية قبل الإسلام يدينون بديانات شتىّ ، كما رأينا في حلقات سابقة. والكتابات التي اكتُشفت في جنوبي الجزيرة تدلّ على عبادة الشمس والقمر. ويذكر القرآن آلهة عدة كان العرب يعبدونها قبل الدعوة

النبويّة ، منها اللات والعزّى ومناة وودّ وسواع وغيرها ، كما كانوا يعبدون أنصاباً يطوف الكُهّانُ حولَـها وهـم ينشـدون الأناشيد المسَجَّعة ، وينقلون ما يمكن نقلُه منها في حروبـهم وغزواتهم.

ومنذ القرون الأولى للنصرانيّة كانت بعض الجماعات في الحجاز واليمن ، وقد اعتنقت المسيحيّة أو اليهوديّة، وكان أهم مركز للنصرانيّة في نجران ، وأهم مراكز اليهوديّة فـي خيبر ويثرب . وكانت مكّة سـوقاً مشـهورة يَؤمّـها البـدو والحَضر في مواسم معيّنة ، كما يؤمّون سوق عُكاظ ، وفيهما يلتقي الوثني باليهودي وبالمسيحي.

ففي القرن السادس كانت أسواق الجزيـرة العربيَّـة عامرة، وكلها مواطن التقاء بين الهند وفارس وبابل والحبشة وسوريا. وكانت القوافل تنقل منتجات الجزيرة إلـى البلـدان المجاورة كما تعود الجزيرة بمنتجات هذه البلدان.

من هذه البيئة المتفتّحة على العالم الخارجي ، ظـهر محمد ابن عبد الله ، من بني قريش ، وهي الأسرة الحاكمـة في مكّة، ونقل إلى العرب والعالم رسالة تبشّر بإله واحـد ، وبحياة في الآخرة ، وبثواب وعقاب . لقد كان للقرآن الكريم أثرٌ كبير في نشأة التفكير الفلسفي عند المسلمين باعتباره آخر

حلقة في سلسة الهداية الإلهية ، وضّح طريق السعادة للناس في شتىّ جوانب الحياة ، فلم يترك شأناً من شؤون العقيدة والشريعة ، ولا جانباً من جوانب الفكر والعمل ، إلاّ وعرض له وعالجه بالطّريقة المناسبة . لقد رسم للناس قواعد الفكر والنظر ، وصوّر لهم الوجود في شكله النهائي ، ووضع قواعد الحياة العملية (متمثّلةً بالشريعة) ، ورسم قواعد السلوك الإنساني والأخلاق.

دعا القرآن الكريم إلى التفكير والتأمّل ، وحثّ على النظر في ظواهر الطبيعة وأحوال النفس وخفايا الوجود ، بنيّة التوصّل إلى معرفة الله تعالى خالق الكون والإنسان ، وحرص على توجيه النّظر العقلي حتّى يحقّقَ ثمرته ، فنهى عن الميل إلى الهوى واتبّاع الظنون والأوهام ، وحذّر من الغرور والتكبّر ، وما إلى ذلك من الأمور التي تؤدّي إلى انحراف الفكر. وبهذا يكون القرآن الكريم قد حثّ المسلمين على التفكير الفلسفي ، وفتح الباب أمام النظر العقلي الحر. وتحدّث عن المسائل السمعيّة الأخرى ، كالشّفاعة والحساب والثواب والعقاب ، وأحوال الجنّة والنّار.

وعرض القرآن الكريم لقضايا الكون من حيث البدء والنهاية، وقضايا الإنسان من حيث خلقُهُ وحقيقتُه ، ومكانته

في الكون ، ومسؤوليته عن أعماله أمام ربّه يوم يصير إليه . وبهذا الجانب يكون القرآن الكريم قد رسم التفكير الفلسفي وموضوعاتِه ، وحدّد الأسسَ التي يدور حولها التفكير والبحث.

جادل القرآن الكريم المخالفين للعقائد الإسلاميّة وردّ عليهم ، فردّ على المشركين الذين كانوا يعبدون الأصنام والأوثان وغيرها ، وردّ على الصابئة الذين كانوا يعبدون الكواكب ، وردّ على النصارى واليهود الذين حرّفوا الكتب السماوية ، وجادلهم في كثير من المسائل التي انحرفوا فيها . ويُلاحظ أنّ القرآن الكريم لم يكن يمدّ حبل الجدل ويستطرد فيه ، حرصاً على الألفة ، ومن ثَمَّ فإنّه دعا إلى الأخذ فيه برفق عند الحاجة إليه فقال { **إدعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلْهم بالتّي هي أحسن** }. وبهذا الجانب يكون القرآن الكريم قد حثّ المسلمين على الدفاع عن عقائدهم ، ووجّههم إلى ضرورة الردّ على أصحاب العقائد المخالفة، وكذلك فإنّ القرآن الكريم شجّع على ظهور علم الكلام الذي تصدّى رجاله لتوضيح العقائد والدّفاع عنها ومجادلة المخاصمين . وقد وضّح القرآن الكريم كثيراً من الأحكام التشريعيّة التي تتّصل بالعبادات والمعاملات ، من

الصلاة والزكاة والصوم والحج والبيع والشراء والميراث ، وما إلى ذلك من الأمور التي تتّصل بمعاملات الناس ، إلاّ أنّه لم يتعرّض للأمور الجزئيّة ، وقد اهتمّت السنّة النبويّة بتفصيل ما أجمل القرآن ، وتوضيحه.

وقد أقرّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) مبدأ الاجتهاد في حديثه المشهور لمعاذ عندما أرسله إلى اليمن.

وبهذا الجانب يكون الإسلام قد فتح الباب للاجتهاد بالرأي الذي مهّد لظهور القياس ، ووضع أصول الفقه ، الذي يمثّل في نظر بعض المفكّرين مجالاً من مجالات التفكير الإسلامي.

ليست الفلسفة العربية وليدة الفكر العربي وحده ، فقد نفذت إلى الإسلام تيّارات ثقافية ودينية متعدّدة تفاعلت فيه ومعه فنشأت عن ذلك أفكار جديدة . وقد نقل اليهود الفلسفة العربية إلى القرون الوسطى المسيحية ، كما نقل النصارى الفلسفة اليونانية إلى العالم الإسلامي.

وفي بيئة منفتحة على العالم الخارجي ظهر الإسلام فضلاً على أنه رسالة دينية فإنه وحّد بين العرب الذين كانوا متفرّقين قبائل، وأخرجهم من الجهل ، فاعدّ دخولهم ليكون دخولاً نهائياً في تاريخ الحضارة.

وللإسلام ثلاثة أسس هي : القرآن – والسنّة – والحديث.

والقرآن : يُقسم إلى مئة وأربع عشرة سورة ، وتُقسم السورة إلى آيات ، ولم يكن القرآن مرتّباً . فرتّبه (زيد ابن ثابت) حسب أطوال السور ، فجاء أطولها في الأوّل وأقصرها في الآخر.

أمّا السنّة فهي المرجع الثاني للمسلمين بعد القرآن ، وفيها نشأ علم الحديث ، ثم جاء الفقه الذي يعني الوقوف على المعنى الخفي الذي يتعلّق به الحكم . و قد ظهرت مذاهب فقهيّة عديدة ، لكنّها تلاشت جميعاً وبقي منها أربعة:

المذهب المالكي : مؤسّسهُ (مالك بن أنس) وقد ألّف كتاباً يجمع بين الفقه والحديث سمّاه (المُوَطّأ).

والمذهب الحنفي : مؤسّسهُ (أبو حنيفة) ترك كتاباً سمّاه (الفقه الأكبر).

ثم المذهب الشافعي : مؤسّسهُ (محمد بن ادريس الشافعي) ، ثم المذهب الحنبلي : مؤسّسهُ (أحمد بن حنبل)، نبذ كلّ شيء عدا الرأي ، أمّا أصول الفقه عنده فهي القرآن والسنة والحديث. تلا ذلك الفِرَقُ والتصّوف والاتجّاهات الفكريّة المختلفة .

الــرازي

في القرن السادس عشر ، أيّام حكم كسرى الأوّل ، بدأ تأثير الفكر الفارسي بالعلم والفلسفة اليونانيين . فقد استضاف كسرى الأوّل ممثّلي مدرسة أثينا الفلسفية ، الذين طُردوا من بيزنطة بعد إغلاق مدرستهم . ونُقلت إلى الفارسية مؤلّفات أرسطو وأفلاطون . وأُقيم عدد من المراكز العلّمية ، التي عُني باحثوها بالطب ، والعلوم الطبيعية ، والفلك ، والفلسفة . وفي العصر الإسلامي نبغ في إيران مفكّرون بارزون ، منهم الطبيب والكيميائي المشهور (أبو بكر الرازي).

ينصح الرازي ، في مؤلّفه الطبّي المشهور ((الحاوي لصناعة الطب))، بعدم الانقياد الأعمى لآراء أبقراط وجالينوس ، بل يدعو إلى إقامة صناعة الطب على المشاهدة والخبرة . وقد اشتُهر الرّازي لا كعالِم طبيعي فحسب، بل كفيلسوف بارز ، طوّر في أعماله الفلسفية ، الآراء القائلة بالمبادئ الخالدة.

الرازي هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، عاش في بغداد ، ونال شهرة واسعة في الطب ، ولكنّه قدّم إنتاجاً قديراً في علمَي الهندسة والفَلَك.

في بداية حياته كان مغرماً بالموسيقى ، فكان عازفاً ممتازاً على العود ، ولكنّه لم يلبث طويلاً حتّى بدأ بدراسة الفلك والكيمياء والطب والرياضيات ، فصار علَماً من أعلام علماء العرب والمسلمين.

أشتُهر بمقدرته على التصنيف الذي يعتمد على البحث العلمي ، فيشير إلى مصادره في صُلب كتاباته ، ممّا أكسبه صفة الأمانة العلميّة . وكان ينصح طلاّبه قائلاً : على الطبيب أن يطمع في شفاء مريضه ، أكثر من رغبته في نيل أجوره ، وعليه أن يفضّل معالجة الفقراء على معالجة الأغنياء ، ويجب أن يكون دقيقاً في تعليماته ، جاداً في نفع السواد الأعظم من الناس.وبقيت كتبه الطبية مرجعاً لأطباء أوروبا خلال فترة طويلة.

وتُحكى عن أسلوبه في معالجة مرضاه ، القصّة الآتية:

* * *

مرض غلام في بغداد ، ولم يعرف الأطباء لماذا ينفثُ الغلامُ دماً ، ولمّا عُرض على الرازي فحصه وبحث حاله منذ

ابتدأت العلّة به ، فلم يجد سبباً معروفاً لمرضـــه ، فاســتنظر المريض ليفكّر في الأمر ، مما جعل المريــضَ ييــأس مــن الشفاء ، لاعتقاده أنّه مادام لم ينجح الرازي في معرفة علّته ، فلن ينجح سواه ، لكنَّ الرازي عاد بعد قليل وسأل المريـــض عن المياه التي شربها ، فأخبره أنّه شرب مــن مســتنقعات ، فقام في نَفْس الرازي بحدَّة الخاطر وصفاء الذهن، أن عَلَقَــةً كانت بالماء الذي شربِه ، فدخلت المَعِدة ، وأنّ ذلــك النَّفْــثَ الدموي من فعلها ، ثم قال للعليــل : إذا كــان الغــدُ جئتُــكَ فعالجتُك ولم أنصرفْ حتّى تبرأ . وعاد الرازي فـــي اليــوم التالي ومعه وعاء مملوء بالطحلب ، وأمر المريضَ أن يبلـــعَ ما في الوعاء ، فبلع الريض منه الشيء الكثير حتى عافتْــهُ نفسُه ، ولم يعد يستطيع مزيداً، فطرحه الرازي أرضاً وفتح له فاه بقوّة وجعل يدسّ الطحلبَ في حلقه ويكبسُه كبساً شديــداً ، ويطالبه ببلعه ، إن شاءَ وإن أبى، والغلامُ يستغيث ، إلـــى أن تقيّأ ما في جوفه ، فتأمّلَ الرازي قذفَهُ فإذا فيــه عَلَقــة ، وإذا هي لمّا وصل الطحلبُ إليها ، دبّت إليــه بطبعــها وتركــت موضعَها في مَعِدة المريض ، فلما تقيّأ العليلُ خرجـــت مـــع الطحلب ونهض الغلامُ معافى.

يُعدّ الرازي أوّل الذين استخدموا معلوماتهم الكيميائيـــة في الطب . من مؤلفاته (الحاوي في الطب) الذي ذكرنـــاه قبل قليل ، ويقع في ثلاثين مجلداً ، ويبحـــث فيـــه مختلــف الأمراض التي تصيب الجسم وكل عضو منه على انفراد.

وفيما يلي نورد بعضاً من أقواله المأثورة في العلاج وأساليبه:

- ينبغي للمريض أن يقتصر على طبيب واحد ممن يوثق به من الأطباء.
- المريض الذي يتطبّب عند كثيرين من الأطبّاء ، يوشـــك أن يقعَ في خطأ كلّ واحدٍ منهُم.
- ينبغي أن تكونَ حالةُ الطبيب معتدلة ، لا مقبـــلاً علـــى الدنيا كلّيّة ولا معرِضاً عن الآخرة كليّة ، فيكـــون بيـــن الرغبة والرَّهبة.
- ينبغي للطبيب أن يوهمَ المريضَ أبداً بالصحة ويرجّيـــه بها ، وإن كان غير واثق بذلك ، فمـــزاجُ الجســـمِ تـــابعٌ لأخلاقِ النّفس.
- متى كان اقتصار الطبيب على التجـــارب دون القيـــاس وقراءة الكتب خُذِل.

- مهما قدرتَ أن تعالجَ بدواء مفرد ، فلا تعـــالج بـــدواءٍ مُركَّب.
- الحقيقةُ في الطب غايةٌ لا تدرَك ، والعلاج بمـــا تنصّــه الكتب دون إعمال الماهر الحكيم برأيه ، خَطَرْ.
- الأطبّاء الأميّون والمقلّدون ، والأحداث الذين لا تجربـــةَ لهم ، ومن قلّت عنايتُه وكثُرت شهواتُه، قَتّالون.
- إن استطاعَ الحكيمُ أن يعالجَ بالأغذية دون الأدوية ، فقد وافق السعادة.
- ما اجتمع الأطبّاء عليه ، وشهد عليه القيا س ، وعضدته التجربة ، فليكن إمامَك ، وبالضد.
- إذا كان الطبيبُ عالماً والمريض مطيعاً ، فما أقلَّ لبـــثُ العلّة.

ويُعدّ الرازي من عمالقة علماء الكيمياء . وقد قضى في دراسة هذا العلم مدّة مـــن الزمـــن ، فكـــان الغربيـــون والشرقيـــون يعتبرونه مؤسّسَ الكيمياء الحديثة . كمـــا ألّـــف كتباً في هذا المضمار.

وفي كتاب (الأسرار) شرح الرازي منهاجـــه فـــي إجراء التجارب ، فكان يصف المواد التـــي يُجـــري عليـــها

التجارب ، ثم يصف الأدوات والآلات التي يستعملها ، ثم طريقة العمل . كذلك وصف الرازي الأجهزة العلمية التي كانت معروفة في عصره ، فوصف أكثر من عشرين من هذه الأجهزة المعدنية والزجاجية ، وكان وصفُه دقيقاً ، عُني فيه بذكر التفاصيل الدقيقة . وكان لمعرفته بالكيمياء أثر في طبّه، فكان يَنسِبُ الشفاءَ إلى التفاعلات الكيميائية التي تجري بالجسم.

وقد حضَّر الرازي بعضَ الأحماض ، مثل حمض الكبريتيك ، وسمّاه زيت الزاج ، أو الزاج الأخضر ، كما حضّر الكحول بتقطير المواد النشويَة والسكريّة المتبخّرة ، وكان يستعمله في الصيدليات وفي الأدوية ، وكذلك قدَّر الكثافة النوعية بعدد من السوائل ، مستعملاً ميزاناً سمّاه الميزان الطبيعي . ويعتَبر الرازي من أول الذين اهتمّوا بأثر النواحي النفسية في العلاج ، لأنّ للنفس الشأنَ الأوّل فيما بينها وبين البدن من صلة.

* * *

لقد جاء الرازي بعد علماء الكلام فتأثر بأفكارهم ، ليؤثرّ بمن تلاه . لقد كان من أهم علماء الكلام هم المعتزلة الذين رأوا أن العقل هو مقياس الحقيقة ، و أنّ الشكَ

ضروري للوصول إلى اليقين، لذلك لابدّ أن نقتنع حتّى نؤمن، وإذا تعارض العقل مع النقل ، أي مع العقـــائد الموروثـــة ، وجب تقديم العقل على النقل ، وذلك بتأويل الدّين بما يتناسب والمعاني التي يقبلها العقل بعد أن يتأمّلَ فيها.

ثم جاءت الأشعرية التـــي نـــاهضت آراء المعتزلـــة وحاولت التوفيق بين العقل والنقل . بعد ذلك جاء الكندي عام ثمانمئة ميلادية ، وكان عالماً رياضياً وكيميائيـــاً وطبيعيـــاً ، فضلاً عن كونه فيلسوفاً فيزيائياً ، كما رأينا، وهو الذي نادى أنه لا حرج في درس الفلسفة لأنّها (علم الأشياء بحقائقـــها) وقال إنّ الخلاف بين الدّين والفلسفة خلافٌ عارض ســـرعان ما يزول عندما نلجأ إلى التأويل . وقد لُقّب الكندي بفيلســـوف العرب لأنّه رفع حَجَر الأساس في بناء الفلسفة العربيـــة . وكان سبيلُه أن يعمد أوّلاً إلى تحديد المفاهيم بألفاظها الدالّـــة عليها تحديداً دقيقاً. ولهذه الفكـــرة أثرهـــا فـــي المفكريـــن الأوروبيين ، وبخاصة أصحاب الوضعية العلمية التي تبنّاهـــا في المحيط العربي المرحوم زكي نجيب محمود.

* * *



الفارابي

ولد أبو نصر محمد المعروف بالفارابي سنة ثمانمئة وسبعين ميلادية في مدينة فاراب التركية من أب فارسي . استوطن بغداد وأقام في حلب مدّة من الزمن . واتصل بسيف الدولة الحمْداني وتوفيّ عن ثمانين عاماً ودُفن في ضواحي دمشق.

كان الفارابي زاهداً في ترف الدنيا ، يميل إلى العزلة ويحبّ التأمّل والتفكير،رفض عروض الغنى والنفوذ ، ويُروى عنه أنّه كان يرتدي ثياب المتصوّفين الخشنة ، ورفض ما أنعمه عليه سيف الدولة واكتفى بأربعة دراهم ليسدَّ بها رمقه.

كان الفارابي واسعَ الثقافة والمعرفة ، يتقن لغات كثيرة ، ويُلمّ بالموسيقى ، وقد اخترع آلة القانون ، ويروي ابن خلّكان أن الفارابي وهو في بلاط سيف الدولة ، التقى الموسيقيين والعازفين، فصار يعيب على كلّ عازف موسيقاه، فطلب منه الأمير أن يعزف هو ما يريد ، فأخرج من جيبه

عيداناً وأوتاراً ، جمعها وعزف عليها ، فإذا كلّ من في المجلس يضحك حتى الدموع، ثم فكّها وأعاد تركيبها وعزف، فإذا الجميع في بكاء ، ثم فكّها وركبّها وعزف ، فنام جميع من في المجلس ، فتركهم نياماً وخرج.

هذه الرواية تدل على دراية الفارابي بالموسيقى التي ترتبط بالمنطق والرياضيات . وكما لُقّب أرسطو بالمعلم الأوّل ، لُقبّ الفارابي بالمعلّم الثاني . له ردود على جالينوس وأرسطو والرازي.

من أهم آثاره ، كتاب : الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون وأرسطو ، وكتاب : آراء أهل المدينة الفاضلة ، وكتاب : تحصيل السعادة ، وكتاب : الموسيقى الكبير ، وغير ذلك كثير من الكتب والمصنّفات.

تتميّز كتب الفارابي بحسنِ التبويب وقوّة التركيز ، وقد تُرجمت كُتبه إلى أغلب اللغات الحضارية آنذاك ، وحتى اليوم نجد في المكتبات الأوروبية الترجمات اللاتينية عن كتب الفارابي.

ولإثبات فكرة وحدة الحقيقة ، وإن اختلفت الآراء ، حاول الفارابي التوفيق بين أفلاطون وأرسطو . وقد ربط بين السياسة والأخلاق . فالعلم السياسي هو علم الأشياء التي

بوساطتها توصّلَ سكّان المدن إلى السّعادة بفضـــل المجتمـــع الإنساني . فسعادة الإنسان مرتبطة بالحياة الجماعيّة لأبنــــاء المدينة.

وتدرس الفلسفة المدنيّة عند الفارابي أصنافَ الأفعال والشرائع الإدارية ، والأخلاق والسجايا التـــي تفعــل تلــك الأفعال، والغايات التي لأجلها تُفعل الأفعال.

إنّ الفارابي يُقرن المدن بالأمم ويربط بينها . وقد قسّـم الفارابي الجماعات البشرية بحسب روابطها إلى أنواع:

- الاجتماعات الكاملة : منها : العظمى وتشمــل كــل المعمورة ، وهي مجموع الأمم . والوسطى : وهي الأمّــة. والصغرى : وهي مدينة ، أو جزء من أمّة.

أمّا الاجتماعات غير الكاملة فــهي القريــة والمحلّـة والسكّة والمنزل . والاجتماعات في المحالّ والقرى كلتاهمـــا لأجل المدينة . والفرق أنّ المحالَ أجزاءُ المدينة ، والقـــرى خادمة لها.

وتتميّز أمّة عن أخرى بالأخلاق والشّيَم واللغة.

وهذا الاختلاف بسبب : - اختلاف الأمكنـــة بالنســبة للكــرة الأرضيــة ، واختــلاف الأمكنــة علـــى الأرض ،

واختلاف الأبخرة المتصاعدة من الأرض ، واختلاف الهواء والمياه ، واختلاف الأغذية ، واختلاف المواد والزرع.

وبواسطة تعاون أفراد المجتمع تنال المدينةُ والأمة والمعمورة السّعادة.

أمّا أنواع المدن عند الفارابي فهي : المدينة الفاضلة ، وهي التي تتعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة الحقيقية، ويكون التعاون بالفكرة والعمل.

وقد أخذ الفارابي عن أفلاطون فكرة تشبيه المدينة بالبدن التام الصحيح . والفرق هو أن تعاون الأعضاء في البدن طبيعي ، وتعاون أعضاء المدينة إرادي.

لقد أدرك الفارابي بوضوح الفرق بين وظائف الاجتماع من حيث تعاونها واختلافها أي التفكير والإرادة . وقد شبّه الفارابي الوحدة والترتيب في المدينة الفاضلة بنظائرها في النفس والبدن ، فكما أن للنفس وحدة تترتب فيها قواها من الأعلى (القوة الناطقة) إلى الأدنى (الغاذيّة) فهناك القلب الذي يرأس ولا يخدم ، وهناك أعضاء أقل منه فأقل ، إلى أن تنتهي إلى أعضاء تخدم ولا ترأس ، وهكذا حالة المدينة الفاضلة .

إنّ مراتب المدينة الفاضلة عند الفارابي شبيهة بالموجودات الطبيعية . فعلاقة الموجود الأوّل بسائر الموجودات الأخرى ، كعلاقة ملك المدينة الفاضلة بسائر أجزائها . وهكذا فإنّ الموجودات (البريئة من المادة تقرّب من الأول ودونها الأجسام السماوية .. وهكذا ..) وبالاختصار فإنّ علاقة الموجود الأول بسائر الموجودات ، كعلاقة ملك المدينة الفاضلة بسائر أجزائها ، والقلب بسائر أعضاء البدن ، والقوة الناطقة بقوى النفس الباقية . فالساسة عند الفارابي قسم من الفلسفة الأولى.

ولابد من توافر صفات في رئيس المدينة الفاضلة . يقسمها الفارابي إلى قسمين أساسيين:

صفات بالفطرة والطبع ، وصفات بالملَكة والهيئة الإدارية.

فعلى الرئيس أن يكون في أعلى مراتب الإنسانية ، وأن تكون نفسه كاملة متّحدة بالعقل الفعّال . وهكذا فالرئيس فيلسوف وحكيم ونبيّ منزّه . ويعدّد الفارابي اثنتي عشرة خصلة فطرية للرئيس ، وست خصال (أو فضائل) مكتسبة. وإذا لم يوجد إنسان واحد حائز على هذه الخصال ، فيجوز أن يكون اثنين .. أو ستة ، شرط أن توجد الحكمة في أحدهم.

كما يتوجّب على الملوك والأئمة دراسة العلوم النظرية وفق نظام أفلاطون . أمّا المدن الشريرة عند الفارابي ، فهي مضادّات المدينة الفاضلة . وهي المدينة التي لم يعرف أهلها السعادة الحقيقية ، والتي يقتصر أهلها على الضروري ، أو يتعاون أهلها لبلوغ اليسار والثروة ، فالثروة غايتها ، أو يتعاون أهلها ليكونوا ممدوحين مكرّمين.

أمّا مدينة الخسة والشقوق فإن غاية أهلها التمتع باللذة من المحسوس والتخيل وإيثار الهزل واللعب.

ومدينة التغلّب يكون قصد أهلها أن يكونوا القاهرين لغيرهم ، وهدفهم لذة الغلبة.

والمدينة الجماعية ، يقصد أهلها أن يفعل كلّ منهم حسب هواه . وهي شبيهة بالفوضوية.

أمّا المدينة الفاسقة فهي المدينة التي يعلم أهلها السعادة والله والعقل الفعّال ، ويعملون أعمال أهل المدن الجاهلة ، فهم يقولون ويعتقدون ولكنّهم لا يفعلون.

والمدينة المتبدّلة تلك التي كانت آراء أهلها وأفعالهم مطابقة لأهل المدينة الفاضلة ، إلاّ أنّها تبدلّت فدخلها الفساد.

والمدينة الضالّة ، تعتقد في الله والعقل الفعّال آراء فاسدة ، ويدّعي رئيسها أنه مُوحَى إليه . ويحذّر الفارابي من

وجود النوابت في المدن، والنوابت، يوجد منهم في كل المدن، وهم بمثابة الشوك في الزرع ، ثم البـــهيميون بـــالطبع مـــن الناس. إن التمييز بين هذه الأشكال المختلفة للمدن الشريـــرة يقوم أساساً على المعرفة الناقصة للسعادة الحقيقية . وهكـــذا نجد الفارابي يحاكي بمدينته جمهورية أفلاطون.

إنّ آراء الفارابي السياســية هــي تطبيــق لنظريّاتــه الفلسفية. وإن كان الفارابي قد علّق علـــى رئيــس المدينــة الفاضلة كل الأهمية ، كأفلاطون ، فإننا لا نزال نلاحظ فروقاً بينهما : فقد اشترط الفارابي للرئيس أن يكون نبياً بالإضافـــة لكونه فيلسوفاً ، ليكون على اتصال بالعقل الفعّال.

فعند أفلاطون على الفيلسوف أن يهبط مـــن تأملاتـــه للمعقولات المجردة إلى عالم الشـــؤون السياســية ، وعنـــد الفارابي عليه أن يصعد إلى العالم الروحي . وبـــهذا يبتعـــد الفارابي عن الواقع.

وهكذا فقد جمع الفارابي بين النبـــوة والفلســفة فـــي شخص رئيس مدينته بقصد الوفاق بيـــن النبـــوة والفلســفة ، وبالتالي بين الحكمة والشريعة . فنراه يتجاهل آراء أفلاطون بالشيوعية عند الحكام ، لتناقضها مع تعليم الإسلام.

يحتل الفارابي مكانة مرموقة في الفلسفة الإسـلامية ، فقد أسهم إسهاماً كبيراً في إثراء الفكر الإنساني ، بما قام بـه من جهود في سبيل التعريف بالفلسفة اليونانية ونشرها ، فقـد تولاّها بالشرح والتحليل والنقد والتعليق والتلخيص . ويكفـي أن نشير إلى أن ابن سينا قد صرّح بأنه لم يستطيع أن يفـهم كتاب أرسطو (ما بعد الطبيعة) الذي أعاد قراءته أربعيـن مرّة ، إلاّ بعد أن اطّلع على كتاب الفارابي في أغراض مـا بعد الطبيعة.

المعرّي

قبل أن ننتقل إلى الحديث عن أهم أفكار ابـــن ســينا وأقرانه الآخرين ، نودّ أن نتذكّر معاً أهم الأعـــلام العــرب الذين كان لهم دور رئيس في توطيد دعائم الحضارة الحديثة، حيث برع الرازي وابن سينا وابـــن النفيـــس فـــي الطـــب ، وانتقدوا كثيراً من آراء جالينوس ، وأسهم جابر بـــن حيـــان إسهامات جليلة في الكيمياء والصيدلة ، واشتهر ابن البيطـــار في كتاباته حول النبات . وأوجد الخوارزمي الجبر في زمـــن المأمون . ويُعتبر البتّاني من عباقرة العالم في علم الفلك، وقد أُطلق عليه لقب بطليموس العرب .

واكتشف الادريسي منابع النيل ، وكان للبيروني آراء جغرافيّة قيّمة في عصره . ويُعَدّ ابـــن الـــهيثم مـــن أكـــبر الطبيعيين في القرون الوسطى.

أما ابن المقفّع فقد أقرّ بنسبيّة الحقيقة التي يصل إليـــها الإنسان . من أشهر ترجماته (كليلة ودمنة) وأشهر مؤلّفاته

(الأدب الصغير) و (الأدب الكبير). رأى ابن المقفع أن العقل هو أفضل ما رزق الله تعالى عباده ، فالعقل هو دعامة الإنسان حيث لا يستطيع دفع ضرر أو جلب منفعة إلاّ به .

وقد تبعه النَظّامُ في تمجيد العقل ، بل تمادى في نقد العلماء والعامّة وعاداتهم وخرافاتهم وإيمانهم بالجنّ والغيلان . وهو يفسّر مصدر هذا الضلال بتتبّع تاريخه النفسي والتربوي والاجتماعي ، فيوضّح كيف يتحوّل الوهم إلى عقيدة ، وينقلب الخيال إلى حقيقة لها قوة البداهة الكاذبة ، ومصدر ذلك كلّه فقدان الروح الانتقاديّة.

وقد سبقت عقليّة النظّام زمنها باعتماده على الشك والتجربة ، يقول : (لم يكن يقين قط، حتى صار فيه شك) . ويقال إنّه سقى الحيوانات خمراً ليرصد تأثير ذلك عليها.

وحين جاء الجاحظ ، تلميذ النظّام ، اشتهر بقوله : (ليس يشفيني إلاّ المعاينة) مع إدراكه أن الحواس قد تخطئ وأن الخبرة قد تخدع ، فلابد من الاحتكام إلى العقل ، ولابد من الشك الواعي ، لأن معرفة مواضع الشك وحالاته تبيّن مواضع اليقين وحالاته . وخلّق الجاحظ آثاراً كثيرة من بينها (الحيوان) و(البيان والتبيين) و (البخلاء) وغيرهما.

ثم جاء المعرّي الذي آمن بالعقل وقدرته ، وتميّز بأنه بقي نباتياً لا يأكل حيواناً ولا منتجاته ، كما بقي عزباً طـــوال حياته ، وأصيب بالعمى وهو في الثالثة من عمره . من أشهر آثاره (سقط الزنـــد) و (اللزوميـــات) و (رســـالة الغفـــران) وغيرهما.

تحدّث المعرّي عن فساد السياسة التـــي تتحـــوّل عـــن غايتها فتصبح مطيّةً لجلب منفعة خاصّة ، بدلاً مـــن كونـــها مسؤولية صعبة ، يقول:

مُلَّ المقـــامُ فكم أعاشـــرُ أمّـــةً أمرت بغير صـــلاحها أمـــراؤها
ظلموا الرعيّة واستجازوا كيدها وعَدوا مصالحَها وهم أجراؤهـــا

ولكنّه حاول – بطريقة أخرى البرهنة على كبريائه التي لا تستسلم ولا تستكين ، وإنما تدعو لمقاومة الظلم والفساد :

إذا لم تتم بالعدلِ فينا حكومةٌ فنحنُ على تغييرها قُدرَاءُ

وعموماً فقد تحيّزت أفكار المعرّي بالسوداوية والتشـــاؤم:

تعبٌ كلّها الحياةُ فما أعـــ جَبُ إلاّ من راغبٍ بازديادِ

إنه شاعر متشائم إذ رأى الفساد في كـــلّ مكـــان ، فـــالحكم فاسد، وفوضى السياسة تعكس فساد أربابها الذين لايصلـــون إلى السلطة إلاّ بالمكر والخداع:

فأميرُهم نال الإمـــارة بالخنـــى وتقيّـــهم بصلاتـــه متصـــيّدُ
كن من تشاء مهجّناً أو خالصاً وإذا رُزقت فأنت أنت السّيدُ

ورأى أنّ الشرَّ فطرةٌ في الإنسان ، ورفقاء السوء يفسدون حتى الخصال الحسنة ، ولكنّ الإنسان بـــالتدريب والمِـــران يستطيع أن يُصلحَ شأنَ نفسه بعد أن يتمسّك بـــإرادة صلبـــة تقاوم مغريات الهوى.

والمعرّي يعتقد بأهميّة العقل ، ولكنّه لا يمنحه العصمة ، لذلك نراه يقول:

سألتموني فأعيتني إجابتكم ... مـــن ادّعى أنّه دارٍ فقد كَــذبــا
أمّا اليقينُ فلا يقينَ ، وإنّما ... أقصى اجتهادي أن أظنَّ وأحدُسا

فحتّى العقل الذي آمن به ، يبدي تشكّكه فيه ، مما يـــدل على رؤية الحياة من خلال منظار معتم.

وقد رأى أن المعاملة الحسنة مهمّة إلى جـــانب طقـــوس العبادة ، بل قد تفوقها أهميّة ، يقول:

توهمتَ يامغرورُ أنّك ديّـــنٌ ... علـــيّ يميـــنُ اللهِ مـــالكَ دينُ
تسيرُ إلى البيتِ الحرامِ تنسكاً ... ويشكوكَ جارٌ بائـــسٌ وخدينُ

وتحدّث عن احتيال الواعظين الذين يأمرون بـــالبّر وينســـون أنفسهم .. وكثيراً ما تتناقضُ أقوالُهم مع أفعالهم:

رويدكَ قد غررتَ وأنتَ حرٌّ ... بصاحبِ حيلةٍ يَعِـــظُ النساءَ
يحرّم فيكُم الصهباءَ صُبحاً ... ويشربُها على عَمـــدٍ مســـاءَ
يقولُ لكم غدوتُ بلا كساءٍ ... وفي لذّاتها رَهَنَ الكـــســـاءِ

إذا فعلَ الفتى ما عنهُ ينهى فمن جهتينِ ، لا جهةٍ ، أساءَ

وتحدّث عن أضرار الخمرة وآفاتها وشرورها ، وذكر أنّها تُفسد الأهلَ وتفرّقُ الأصحابِ وتتلف المال . واستنكر المذاهب التي تدعو إلى الإباحة.

لقد جال المعري في نطاق الأفكار جولةً واسعة ، فنظر في الأخلاق وحلّل أصولها ، وعلّل ظواهرها . وتأمّل المجتمع فتحرّى مفاسدَهُ ، وحذّر من آفاته ، ودعا إلى الخلاص من شرور الحياة ، باعتزالها ، ممّا أدّى به إلى الزهد في الدنيا ، واليأس من صلاح أحوالها.

ولو أتيحت الفرصة للمعري كي يستعذب الموسيقى لجنّب نفسه الكثير من الآلام .

لقد أتقن العرب الموسيقى حتى جعلوها علماً ، وأوجدوا له القواعد الرياضية الثابتة ، وكان من أشهر علماء الموسيقى الفارابي الذي تعرّفنا على حكايته مع الموسيقيين في بلاط سيف الدولة في حلب ، حيث عزف الفارابي مقطوعاته الشهيرة ، ثم ترك الناس نياماً وخرج.



ابن سينا

الشيخ الرئيس هو أبو علي الحسين بن سينا ولد سنة ثمانمئة وتسعين ميلادية قرب بخارى . درس القرآن والفقه والحساب ثم تعرّف بالفلسفة والمنطق عن طريق أستاذه الناتلي ، ثم برع في الطب وهو في السابعة عشر من عمره.

كتب بعض مؤلّفاته بطريقة الإملاء على بعض أصحابه وهو مُعتَلٍ ظهرَ حصان ، إذ كان مغرماً بالأسفار في طلب العلم . وقد ألّف قرابة مئتين وخمسين مصنّفاً.

كان ابن سينا طبيباً نفسانياً من الطراز الأوّل ، اشتُهر في هذا الموضوع شهرةً لا تقلّ بأيّ معيار عن شهرته في فروع الطب الأخرى .فقد درس ابن سينا الاضطرابات العصبية ، وعرف بعض الحقائق النفسية والمرضيّة ، عن طريق التحليل النفسي . وكان يرى أن في العوامل النفسية والعقلية ، كالحزن والخوف ، والقلق والفرح وغيرها، تأثيراً

كبيراً على أعضاء الجسم ووظائفها . ولهذا فقد لجأ إلى الأساليب النفسيّة في معالجة مرضاه.

اشتُهر ابن سينا بطريقة خاصّة في تعامله مع مَرضاه ، فكان الطبيبَ المَرِح الذي يقدّم لهم النصائح الأخويّة، حتّى كان في كثيرٍ من الأحيان يقدّم نصائحه في بعض الأبيات الشعرية . كما كان يحذّر دائماً م الإفراط في أكل الطعام ، أو التهالك على النساء ، ومما يقول في هذا المجال:

اجعل غذاءكَ كلّ يومٍ مرّةً   واحذر طعاماً قبلَ هضم طعامِ
واحفَظ مَنيَّك ما استطعتَ فإنّه   ماءُ الحياةِ يُصَبُّ في الأرحامِ

ويعتبر الكثير من المؤرخين في العلوم ، أن ابنِ سينا من كبار الشعراء في القرون الوسطى . فكان في كثير من الأحيان يستشهد ببعض الأبيات من الشعر ، لأنه يعرف أن أبيات الشعر لها تأثيرها الخاص عند الناس . والجدير بالذّكر أنّ شعرَ ابنِ سينا ينقسمُ إلى ثلاثةِ أقسام : شعر شخصي ، و شعر فلسفي ، و شعر تعليمي.

ويمتاز شعرهُ بالرَّصانة ، وإشراق الديباجة وقد كان ابنُ سينا ، والذي يعرفه الغرب باسم (أفيسينا) كان واحداً من أعظم علماء العالم الإسلامي ، فقد كان تأثيُره على الطب الأوربي بالغاً . وقد ركّز على التراث في عمله العملاق

(القانون في الطب) الذي يُعتبر قمّةً ونموذجاً رائعاً في التنظيم والتصنيف العربي . وتعالج هذه الموسوعة الطبية حقائق الطب العام، وتعرض بالتفصيل لسبعمائةٍ وستّين عقاراً، وللأمراض التي يمكن أن تنتاب كلّ أجزاء الجسم ، من الرأس إلى القدم.

لقد حلّق ابن سينا في سماء الفلسفة ، فكان من العلماء في الإسلام – الذين يعتمدون على الفلسفة في دراستهم العلميّة. لذا يُعتبر ابن سينا من مؤسسي الفلسفة الإسلامية . يذكر راجي عناية في كتابه : (ابن سينا) " إنّ ابن سينا عندما ألّف كتابَ الشفاء كان يقصد بذلك شفاءَ النّفس ، ويقعُ الكتابُ في سبعة عشر مجلّداً ، وهو موسوعة في العلوم والفلسفة ، و الكتاب مقسّم إلى أربعة أقسام هي : المنطق ، والطبيعة ، والرياضيات ، وما بعد الطبيعة.

ويُثبت الكتابُ أنّ ابنَ سينا هو صاحبُ فكرةِ الاعتماد على التجربة في البحث.

وقد وضع شروطاً للبحث التجريبي ، تشبه تلك التي نادى بها (جون ستيوارت مل) فيما بعد.

واهتم ابن سينا بعلوم الأرض . فساق تفسيراتٍ كثيرة لبعض الظواهر الطبيعية ، وجاءت آراؤه في هذا المضمار

غير متعارضة مع النظريات العلمية الحديثة ، حتـــى كُنـــيّ بمؤسس علم الجيولوجيا عند العرب.

وأولى ابن سينا علم الفيزياء عنايته الكبرى ، وكانت له فيه ملاحظات بصيرة ، منها أن:

– البصر يسبق الصوت.

– السمع يحتاج الإنسان فيه إلى تموّج الهواء.

– سرعة النور محدودة.

– شعاع العين يأتي من الجسم المرئي إلى العين.

* * *

وله بحوث في الزمان والمكان والحـــيّز والإيصـــال والقوة والفراغ ، والنهاية واللانهاية والحرارة ، وقدّم دراساتٍ جويّةً عن الرياح وقوس قزح ، وأدرك القـــانونَ الأوّل مـــن القوانين الثلاثة التي ينسبها الأوروبيـــون إلـــى نيوتـــن فـــي الحركة، ومؤدّاه : ((إن الجسم يبقى في حالة سكون أو في حالة حركة منتظمة في خطّ مستقيم ، مـــا لـــم تُجـــبرْه قُـــوّةٌ خارجيّة على تغيير حالته . ورأى أنّ السُـــحُبَ تتولّـــد مـــن الأبخرة الرطبة . وأنّ البرقَ يُرى ، والرعدَ يُسمع ، فإذا حدثا معاً رؤي البرق وتأخّر سَماعُ الرّعد.

كما درس ابن سينا علم الكيمياء وأبدع فيـــه ، فحـــذا حذو أساتذته علماء المسلمين من أمثال : جابر بـــن حيـــان ، وأبي بكر الرازي ، والكِندي ، وغيرهم . ولكنّه لم يكن مجرّد مُتلّقٍ لآراء السابقين ، بل إنّه خالَف كثيراً من الآراء الخرافيّة التي كانت منتشرة آنذاك ، فهو أوّل من دحـــض فكـــرة : أن المعادن يمكن تحويل بعضها إلى بعـــض . وفـــي رأيـــه أنّ المعادن لا تختلف باختلاف الأصباغ ، بل تتغيّر في صورتها فقط . وكلّ معدن يبقى حافظاً لصفاته الأصليّة . وفلسفة ابن سينا متدرّجة ، بعضها للعامّة ، وبعضها للخاصّـــة ، وهـــي عموماً تهدف إلى معرفة حقيقة الأشياء علـــى قـــدر طاقـــة الإنسان . وقد اهتمّ كثيراً بالنفس الإنســـانية فبـــدأ بإثبـــات وجودها ومغايرتها للبدن ، لا تفنى بفنائه وإنما هي خـــالدة ، وقد أورد خلاصة آرائه في النفّسْ من خلال قصيدته العينيّـــة التي تتّحدث عن النفس البشريّـــة وتبحـــث فـــي مصدرهـــا ومصيرها، يقول في مطلعها:

هبطتْ إليك من المحلّ الأرفَعِ ورقْاء ذاتُ تعزُزٍ وتَمَنُّـــعِ

محجوبةٌ عن كلّ مُقْلَةِ عارفٍ وهي التي سَفَرتْ ولم تَتَبرقَعِ

أمّا من الناحية الأخلاقية فيرى أن الناس متفـــاوتون بالصفات والمراتب . ولابُدّ للرجل من سياسةِ نفســـه ودخلـــه

وخرجه وأهله ، وأن يبدأ بنفسه ، لأنّ إصلاح الغير لا يتمّ إلاّ بإصلاح الذات أوّلاً.

ولماّ كان الإنسان مركّباً من نفْس ناطقة وجسد مـــادّي، كان لابدّ من تغليب العقـــل وتفضيلـــه واســـتئصال العيـــوب للوصول إلى السعادة . لذلك على الإنسان أن ينتقي من الناس أفضلَ أخلاقِهم ويقتدي بها ، وينبذَ الطالِحَ منها.

وأن يتّخذ صديقاً ودوداً يكون بمنزلة المرآة الصريحة ، ليكشفَ له عن عيوبه ، فيُصلح نفسَه ويطلب السعادة السامية التي هي سعادة النفس بعد الموت.

* * *

وقد وعى الشيخ الرئيس أصالته وأعرب عنها فـــي مقدمة كتابه (منطق المشرقييّـــن) إذ قـــال : ((ولا نبـــالي مفارقةً تظهر منّا لما ألِفَهُ متعلّمو كتب اليونانيين أُلفاً عن غفلةٍ وقلّةِ فهم ، ولما سُمع منّا في كتب ألّفناها للعاملين في الفلسفة، المشفوعين بالمشّائين ، الظانّين أنّ الله لم يهدِ إلاّ إيّاهم)).

ثم يصرّح بأن انحيازه إلى أرســـطو لا يمنعـــه مـــن استخدام عقله ليصحّح بعض أخطاء المشّائين.

وعلى الرغم من أن ابن سينا يذكر في كلامـــه عـــن أصل العالم لفظ (الصدور) و (الخلق) و(الانبجاس) و(الجود)

فإنّه يعتنق نظرية الفيض كما آمن الفارابي بها قبلــه ، فــالله يعقل ذاتَه ويفيض عنه عقل واحد هو العقل الأوّل ، وهو مبدأ الكثرة ، حيث يفيض عنه عقلٌ ثانٍ تفيض عنه نَفْسُ الســماء الأولى .. وهكذا وصولاً إلى كل ما في الكون من موجودات. وربّما بالطريقة نفسها نرى الأفكار العظيمة تتوالد أو تفيــض في مجرى الإنسانية على امتداد الزمان...

* * *

لم يكن ابن سينا متصوّفاً ، وإنما نزع منــزع الصوفية من منطلق حدسي ، أراد من خلاله أن ينطلق من المحــدود إلى ما وراء المحدود ، بشكل أضحى معــه الحــبّ والنّــور استمراراً للعقل الذي تتعبه الحدود . ويحلّل ابن سينا التصوّف في كتابه (الإشارات والتنبيهات) مما يدلّ علــى تصــوّف نظريّ وحسي . وربّما تجلّت هذه الظاهرة الصوفية الإشراقية الحَدْسيّة في ما وضعه من قصص مثــل (قصــة ســلامان وأبسال) و (رسالة الطير) و (رسالة حي بن يقظان).

ففي (رسالة الطير) يسلك ابن سينا مسلكاً رمزيــاً ، فيشبّه النفوس الإنسانية بســرب مــن الطــير ، يســتغويها الصيّادون (ويعني بهم الشهوات الجسديّة) فتقع في حبائلهم، ولا تزال تحاول الإفلات ، فتخلّص رؤوسها وأجنحتها، وتظلُّ

أرجلُها مقيَّدة ، فتطير مجتازةً العوالم المتتالية حتى تبلغَ عرش المَلك ، فتدخل عليه وتشكوها لَه ، فيُريها من لطفه ، ويُنفِذُ إليها مَن يخلّصها من آخر أغلالها ، وهو ملَك الموت ، وهذا يعني أنّ النّفوس تتحرّر من الجسد بالموت لتعيشَ في عالَم الأرواح.

وفي (رسالة حي بن يقظان) يفرض ابن سينا أنّه خرج منزّهاً مع بعض رفقائه ، فعرض له حي بن يقظان بشكل شيخ بهيّ المنظر قد أوغل في السنّ ، من غير وَهَن ولا شيب، في يده مفاتيح الحكمة . وأصبح هذا الشيخُ هادياً لابن سينا ، ومرشداً له في زيارة العالم العقلي، فانفتح أمامَه طريقان:

إلى المغرب طريق المادّة والشرّ ، وإلى المشرق طريق الفكر ، الذي يسلكه الدليل بابن سينا ، ويَرِدان معاً ينبوعَ الشباب الدائم حيث يسطع النور ، نور الله . ولا يمكن الوصول إلى ذاك الينبوع إلاّ بعد التخلّي عن رفقاء الطريق الذين هم الغضب والشهوة والمادّة.

وفي قصته (سلامان وأبسال) سلك ابن سينا هذا النحو الرمزي ، فصوّر علاقة هذين الأخوين وشخصيّات أخرى ، ممثّلاً لذلك بالنفس والعقل والأشواق والغضب.

أما في مجال الأسرة فإن ابنَ سينا علـــى – عكـس المعري – يصرّ على ضرورة الزواج لصيانة التناسل وحفظ النوع . ويشير إلى دور المحبّة في توطيد العلاقة الزوجية ، ((والمحبّة تنشأ بالألفة ، والألفـــة لا تحصــلُ إلاّ بالعــادة ، والعادة لا تحصلُ إلاّ بطول المخالطة)) ثم يرســـم منهجـــه التربوي مبتدئاً بتسمية الطفل ، حيث يتعيّن على الوالديـــن أن يصطفيا للولد اسماً مختاراً حَسَنَ الوقع والصيغة ، غير متنافر الحروف ، بحيث لا يعرّض الناشئَ ، فيما بعد ، لهزء رفاقه .. وأن يختارا له مرضعةً خلوقةً سليمة ، ثمّ يتعـــهّداه منـــذ الفِطام بالتأديب ورياضة الأخلاق ، ترهيباً وترغيباً . ولابدّ أن يتدرّبَ الطفلُ على حفظ طائفةٍ من آيات القرآن والشعر ، وأن يكونَ رفقاؤه أخياراً . وأن يُنيرَ الوالدانِ له طريـــق اختيـــار مهنة مناسبة.

ليتنا نتمكّن من الاعتناء بأبنائنا ، لعلّهم يصبحون مـــن أصحاب الأفكار التي تغيّر العالم نحو الأفضل .



الغـــزالي

سعى الفلاسفة العقليون في البلاد العربية والإسلامية إلى التوفيق بين العقل والنقل، والتأليف بين الفلسفة والدين. ومال الفلاسفة الانتقاديون إلى تغليب النظر على الإيمــــان. وإذ ذاك ظهر الغزال يدعو إلى إيمان بسيط خال من التعقيـــد، إيمــــان استسلام وعبادة وفناء في الله ومحبته.

انبرى الغزالي بمؤلّفه (تهافت الفلاسفة) للـــــهجوم علـــى المشائيّة الشرقيّة، ولا سيما الفارابي وابن سينا. وقــــد هـــاجم بعنف، القول بخلود العالم وأزليته، وقانونيته.

إن الله عنده، قد خلق العالم من عدم، والمشيئة الإلهيـــــة تتدخل دوماً في مجريات الأمور.

والغزالي، كالأشعري، ينكر السببية في الطبيعــــة، فمـــا ندعوه من رابطة سببية ليس إلا ماعتدنا عليه مــــن تعـــاقب زمني للأحداث والظواهر.

حارب الغزالي الفلاسفة، ونقد المتكلّمين، لكنّه هاجم بعنف شديد الباطنية.

وتحدّث الغزالي عن صراعه الباطني في سبيل الكشف عن الحقيقة ووجد أن أصناف الطالبين تنحصر في فرق أربع، اختار نهج إحداها، وهي فرقة المتصوفين.

وجرى في معارج الشك المنهجي في المحسوسات ثم في المعقولات.

ثم راح ينقد الفرق، فاعترف للمتكلمين بأنهم أجادوا النضال عن العقيدة المقبولة من النبوة، ولكنّه عابهم في اعتمادهم على بعض مسلّمات الخصوم.

حارب الغزالي المتكلّمين بلغة الفلاسفة، وحارب الفلسفة بلغتها، فشرح مقاصد الفلاسفة وكأنّه أحدهم، ثم عمد إلى الردّ عليهم في كتابه (تهافت الفلاسفة)، فالفلاسفة عنده يقسمون إلى ثلاثة أقسام:

أوّلاً – الدهريون: وهم الزنادقة الذين يقولون أن العالم وجد بنفسه، والحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان. كذلك كان وكذلك يكون أبداً.

ثانياً – الطبيعيون: زنادقة أيضاً، آمنوا بالله وصفاته وجحدوا باليوم الآخر.

ثالثاً – الإلهيون : وهم المتآزرون مع الفلاسفة، مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو، وقد كشفوا أخطاء بعضهم، فكفّرهم الغزالي لبِدَعهم وكفر أتباعهم.

وقد كفّر الغزالي الفلاسفة في مسائل ثلاث، قولهم:

أولاً– إن الأجساد لاتُحشر.

ثانياً– إن الله يعلم الكليّات دون الجزئيّات.

ثالثاً– إنّ العالم قديم أزلي.

وقد كان الغزالي، مع ذلك، متسامحاً مع الفلسفة غير أنه استعلى في دعوته إلى ضرورة لجم العوام عن علم الكلام، وأوجب عليهم التسليم لأهل المعرفة.

فهو يزن للخاصة بميزان نقد عاقل يعتمد الدليل والبرهان، ويزن للعامة بميزان توجيه هادف يعتمد التأثير بالاقناع والإفهام.

ثم ينتهي الغزالي إلى طريق (الصوفية) يعترف لهم بأنهم أهل علم وعمل وأن حاصل علومهم السمو بالنفس.

وهذا الانحياز للتصوف لم يمنع الغزالي، وهو فيلسوف عقلي، من نقد شوائب القول بالحلول وبالاتحاد وبوحدة الوجود، وبكل مايُبعد عن جادة الإسلام الصحيح.

ولد أبو حامد محمد الغزالي سنة ألف وتسعة وخمسين في الغزالة وهي بلدة قرب طوس في خراسان. ظهرت عبقريته منذ صغره فأتقن الفقه واللغة وسافر إلى جرجان حيث درس على أبي نصر الاسماعيلي، وعاد إلى طوس، ويروي الغزالي أنه في طريق عودته، قطع عليه اللصوص الطريق وسرقوه، فاسترحمهم أن يعيدوا إليه كتبه لأن فيها قوتَ علمه، فضحك منه اللصوص لأنه لم يحفظ مافيها وأعادوها إليه، فعاهد نفسه أن يحفظ علمَه وكُتُبَه كلَّها، حتى إذا سُرقت ماضاع عليه شيء.

سافر إلى نيسابور وأخذ الفقه على الجويني، ويقال إنه ألّف كتاباً في الفقه وطلب من أستاذه أن يقرأه، وما أن أنهى قراءة ماألّف تلميذُه حتى قال له: (دفنتني وأنا حي).

وحين ذهب إلى الوزير السلجوقي نظامِ المُلك، ولاّه الوزير التدريس في مدرسته النظامية ببغداد. واتسعت شهرته، وأقبل الناس يجنون العلم منه. وإذا به يشكو - فجأةً- علةً مجهولة أعيت الأطبّاء، فخرج من بغداد تاركاً مُلكَه وقفاً، نابذاً شهرته، هارباً من وساوسه، ينشد الرّاحة في ظل العزلة والإيمان، وقصد بيتَ الله الحرام، وقفل إلى دمشق مجاهداً في عبادته، مختلفاً إلى الزاوية المعروفة باسمه في المسجد

الأموي، يصلّي ويقهر شهواتِ نفسه. ثم انقلب إلى خُراسان ودرّس في نيسابور، ثم عاد إلى طوس.

وكثرت بعد ذلك مؤلّفاته في الردّ على مذاهب عصره، حيث كتب (مقاصد الفلاسفة) ليبرهن على إحاطته بعلمَي الفارابي وابن سينا، وأشار فيه إلى أخطاء الفلاسفة. ثم جاء كتابه (تهافت الفلاسفة) الذي شكّك ببراهين الفلاسفة ونظرياتهم. ثم مرّ بأزمة شكّ ظهر بعدها كتابه (المنقذ من الضلال) الذي يشبه السيرة الذاتيّة. ثم انقلب إلى التصوّف حتى توفّاه الله. ترك الغزالي مؤلّفات كثيرة وأثراً عميقاً في الفكر العربي بعد أن برع في علم الكلام، وحاول أن يهدم أركان الفلسفة.

* * *

بنى الغزالي تصوّفه على إيمان يقيني بالله تعالى، وبالنبوّة، وباليوم الآخر. وركّز على إتمام فرائض الشرع، فلا يجوز لأحد أن يعفي نفسه منها.

والغزالي، في الربع الأوّل من كتابه (إحياء علوم الدين)، يبحث في العبادات ويدرس شروطها الخارجية ثم يطلب أن يسمو المؤمن بها إلى الغاية التي من وُضعت من أجلها فلا يتوقّف عند القشور دون اللباب. فالطهارة ليست وضوءاً

ونظافة جسميّة وحسب، بل هي أوّلاً تطهر القلب من الرذائل. والصلاة ليست تمتمة كلام وركوعاً فحسب، بل هي مناجاة الله بالقلب والنفس ثم باللسان.

ولكل فرض روحانيّة خاصّة، على المؤمن أن يتفهّمها، وإلاّ لم ينفذ إلى روح ذلك الفرض. هذه الروحانيّة الصوفيّة لم يُدخلها الغزالي في العبادات فحسب، بل في جميع الأعمال التي يقوم بها المؤمن.

وفي قسم العادات من كتابه إحياء علوم الدين، يبحث في أصول الأكل والكسب والصحبة والمعاشرة والسفر وغيرها، شارحاً آداب كلٍّ منها، ومتقيّداً بمبادئ الدين والعقل فيها.

أما في قسم المهلكات فإننا نراه يطلب تطهير القلب استعداداً لسلوك الطريق. فهو يحدّد عيوب الشهوات وآفات اللسان والغضب والحقد والحسد والمال، مبيّناً أسبابها، ويصف طرائق معالجتها.

بعد تنقية القلب يستطيع المريد أن يقطع المقامات ليرتقي من الزهد إلى حب الله إلى الفناء في الله إلى الإلهام. وحال الزهد عند الغزالي هو انصراف الرغبة عن الشيء إلى ماهو خير منه، أو ترك المحبوب إلى ماهو أحبّ منه، وهو عدول عن الدنيا إلى الآخرة، أو عدول عن غير الله إلى الله.

يبدو أن الغزالي هو أول الفلاسفة العرب الذين اعتمدوا الشك المنهجي لبلوغ اليقين، وهو بذلك سبق ديكارت بأكثر من خمسمائة عام. صاحب المقولة الشهيرة (أنا اشك إذن أنا موجود).

لقد تنبّه الغزالي إلى مخاطر المنطق ومزالق الضلال التي تنتاب الباحث كلّما سعى إلى الحقيقة عن طريق العقل وحده.

وبدلاً من تركيز الغزالي على المعرفة بواسطة العقل، راح يركّز المعرفة على الإيمان، فاتّخذ نورَ الإيمان، الذي يقذفه الله في الصدر، نقطة الانطلاق ومبدأ المعرفة.

خامرت الغزالي الشكوك من عهد الصبا فنظر إلى المذاهب في اختلافها، ولاحظ أن أولاد اليهود يتهوّدون، وأولاد النصارى يتنصّرون، وينشأ أولاد المسلمين على الإسلام، وذلك يكون بالاتّباع والتقليد. ورأى أن الاستمرار في التقليد لايورث النفس اليقين.

ثم راح يستكشف أسرار الفِرَق، فلم تشفِ غليله، لأنّه يبتغي العلمَ اليقيني الذي لايشوبه ريب.

لقد طلبه الغزالي في التقليد فلم يجده، فافترض وجودَه في المحسوسات، وجعل يتأمّل المحسوسات متسائلاً: " هل

يمكنني ان أشكّك نفسي فيها ؟ " ثم رأى أن حاكم الحس يقرّر حقيقة لايلبث حاكم العقل أن يكذّبها وينفيها. فتناول الغزالي البديهيات العقلية، مثل قولنا إن العشرة أكثر من الثلاثة، أو قولنا إن الشيء الواحد لايكون قديماً وحديثاً معاً، أو موجوداً ومعدوماً معاً.

وبينما كان الغزالي يبحث عن اليقين في هذه البديهيات، عارضته المحسوسات تقول: كنتَ واثقاً بي، فجاء حاكم العقل فكذّبني، وها أنت الآن تثق بالعقل، ولكنْ، قد يكون وراء العقل حاكماً آخر يكذّبه، فقد تكون الحياة بأسرها حلماً فلا ينكشف الحق إلاّ بعد الموت.

ودام الغزالي في شكوكه حتى قذف الله في صدره نوراً علوياً خلّصه من ريبته، وبعث في نفسه الطمأنينة عن طريق الكشف الذي وجده الغزالي مفتاحاً للمعرفة.

ولن يؤتى هذا المفتاح إلاّ لمن آمن بالنبوّة، وأقرّ بوجود طور فوق طور العقل، تتفتّح فيه المدارك الخاصّة.

هذه هي حكاية الغزالي كما وردت في كتابه (المنقذ من الضلال).

ولهذا العلم اليقيني طبيعة ذاتية حدسيّة بحتة، فهو لم ينشأ من العقل أو عن طقوس الشرع، وإنما هو تجربة روحيّة،

قلبيّة ، ذوقيّة. والذوق وليد الإلهام الذي يشبه إلهامَ الأنبيــــاء. وهذا الإلهام يؤتَى بالتوكّل الذي يبنيه الإيمان، الذي هو قـــوام اليقين. وأصحاب الذوق الصوفي يبلغون حال المكاشفة فتكون لهم كرامات الأولياء.

هكذا انتهى الغزالي إلى أن العقـــل عـــاجز عـــن حـــلّ المعضلات الإلهية، وأن اليقين يكون بالإيمان الـــذي يرتكـــز على الكشف الباطني الذي هو مفتاح السعادة والمعرفة الحقّة.

بعد أن وضع الغزالي أصول شكّه المنهجي ساعياً وراء مبدأٍ ثابت يبلغه العلم اليقيني، بدأ يقيّـــم أســـاليب العلـــم فـــي عصره، ويبحث في معارف الطالبين والنتائج الفكرية التـــــي انتهوا إليها، فقسم أصناف الطـــــالبين إلـــى أربـــع فـــرق: " المتكلّمون، وهم يدّعون أنهم أهل الرأي والنظر، والباطنيـــــة، وهم يزعمون أنّهم أصحاب التعليم، والمخصوصون بالاقتباس من المعلّم المعصوم. والفلاسفة، وهم يزعمون أنّـــــهم أصـــلُ المنطق والبرهان. والصوفية، وهم يدّعـــــون أنّـــهم خـــواصّ الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة " .

ثم عمد الغزالي إلى دراسة كل فئة مبيّناً رأيه فـــي كـــلّ منها، وخلص – كما رأينا في الحلقة السابقة – إلى ضـــرورة لجم العوام عن علم الكلام، لأنّ حاجة الجمهور إنما هي إلى

الإيمان لا إلى الجدل، وحاول أن يثبت في كتابه (الاقتصاد في الاعتقاد) أن ماينتهي إليه العقل لايناقض الشريعة الإلهية، مع الإقرار بأن العقل الإنساني لايستطيع الارتقاء إلى معرفة الله بوسائله الخاصّة، وأنه يقصّر عن تقدير نِعَم الله التي لاتُحصى.

رد الغزالي على الباطنية في الاعتراض على مبدأ الحكم بالنص أو بالاجتهاد بالاحتكام إلى النص القرآني عند وجوده، بقولهم : " كيف تحكمون في مالم تسمعوه، أبالنص ولم تسمعوه، أم بالاجتهاد والرأي وهو مظنّة الخلاف " ردّ الغزالي على ذلك من خلال مطالبته بالاحتكام إلى النص القرآني عند وجوده، فإذا عرض لنا أمر ليس فيه نصّ قرآني فلا بأس من الأخذ بالاجتهاد، وبيّن ضرورة الاجتهاد بقوله: إن " النصوص المتناهية لاتستوعب الوقائع غير المتناهية " وللمخطئ في الاجتهاد أجر وللمصيب أجران.

وحمل الغزالي على الفلاسفة فجعلهم أصنافاً ثلاثة : دهريين، وطبيعيين، وإلهيين. ثم بيّن موقفه من كل فئة منهم. أما الدهريون فعدّهم زنادقة لأنّهم جحدوا الله، وزعموا أن العالم موجود بنفسه. وكذلك وصف الطبيعيين الذين

اعترفوا بوجود الله، ولكنّهم جحدوا الآخرة وأنكروا الثـــواب والعقاب، فانهمكوا في شهوات الدنيا.

وأما الإلهيون، وفيهم سقراط وأفلاطون وأرسطو وابـــن سينا والفارابي، وقد تكلمنا عليهم جميعاً في حلقات سابقة، فقد كفّرهم الغزالي بحجّة أنهم لم يستطيعوا التخلّص من رذائـــل الدهريين والطبيعيين وبِدعاتهم. وعمد إلى مناظرة الفلاســـفة بأسلوبهم ليهدم نظريّاتهم ويثبت عجز الفلســـفة عـــن بلـــوغ الحقيقة الإيمانيّة، داعياً إلى الإيمان الروحي من خلال الفصل بين الشريعة والحكمة.

ثم يردُّ على القائلين بمبدأ السببية: " ... ليس لـــهم مـــن دليل إلاّ مشاهدة حصـــول الاحـــتراق عنـــد ملاقـــاة النـــار، والمشاهدة تدلّ على الحصول عند الملاقاة، ولا تـــدلّ علـــى الحصول به.

إنّ القائلين بمبدأ السببية قد شاهدوا الأشياء متعاقبة على نحوٍ معين، فتكون الحادثة الأولى وتتبعها الحادثة التالية على الأثر فتهيّأ لهم أنّ الأولى علّةُ الثانية حتماً. ولكن هذا الاقتران ليس ضرورة من الضرورات الدائمة، وإن إثباتنـــا لإحـــدى الحادثتين لايحتّم إثباتنا للأخرى؛ ولا يحتم نفيُها نفيَ الأخرى.

فالاحتراق، مثلاً، لايدل على أنّ الاحتراق قد حصل بالنّـــار، بل يدلّ على حصوله عند ملاقاة النار، أي مع النّار.

ذلك أنّ الطبيعة، وكل مافي الطبيعة، لايســـتطيع إتيانـــاً بفعل، لأن الفعلَ يقتضي سابق إرادة حرّة، واختيـــار كـــامل، وعلم شامل؛ وليس للطبيعة إرادة حرّة، أو اختيار كـــامل أو علم شامل؛ وبالتالي فهي لاتفعل؛ وإنما الفاعل هو الذي جعل فيها خصائصَها، وعن إرادته وحدها يصدر الفعلُ وهو وحده الفاعل. وإذا قيل إنّ الطبيعة تعمل، فذلك يُقال منّا على سبيل المجاز. أمّا كيفيّةُ هذا التعاقب وغاياته وسرّه فأمور تخـــرج كلُّها عن إدراكنا، ولا تتّسع لها القوى البشرية.

ولم يَغب عن الغزالي أنّ إنكار السببية قد يُفضـــي إلـــى ارتكاب المُحالات المستقبَحة، بحيث " يجوز عندنـــا انقـــلابُ الكتاب حيواناً وجرّةُ الماء شجرةَ تفاح "؛ غير أنّـــه شـــاء أن يُخضِع كلّ إدراك عقلي للإيمان، وكلّ فعلٍ جزئـــي لـــلإرادة الإلهيّة. فإرادته تعالى هي التي اقتضت وجودَ هذا العالم، ولذا فهو يعرفُ كلّ مافي العالم.

وهكذا، فاستمرارُ العادة في جريان الأشياء على وتـــيرة واحدة، يرسّخ في أذهاننا أنّها ماضيةٌ على حالها حتّى النّهاية؛ وتتابُع الأمور على هذا النحو في رأيه ليس ضرورياً بالحتم؛

إنّه ممكن، يجوز أن يقعَ ويجوز أن لايقع. فالغزالي مؤمن بأنّ العالم لايسري على نمط واحدٍ دائم مدى الدهر، وأنّ الإرادة الإلهيّة تستطيع تحويلَ مافيه.

ومن قبيل هذا التحوّل النبوّة؛ فإنّ الأمور الممتنعة في العقل ممكنة في حقّ الأنبياء. وأبين المعجزات كتابُ الله الذي " ثبت كونُهُ معجزاً بطريق الحسّ والاعتبار لكل إنسان وُجِدَ ويُوجَدُ إلى يوم القيامة " ؛ وبوضع الشرائع الملائمة للحق كانت سعادةُ الخَلْق.

يتبين من هذا كلّه أنّ موقف الغزالي مناقضٌ لموقف الفلاسفة؛ فهو يُخضِع العقلَ والعلمَ للإيمان دفاعاً عن الدين، ويُرجِع المُحَالاتِ العقليّة إلى المعرفة التي لاتكون إلاّ عن طريق التسليم الروحي والكشف الباطني.

لمّا فرغ الغزالي من هذه العلوم، وأقبل على طريق الصوفيّة، وافق إقبالُه عليها هذا النزاعَ العميق، بين شهوات الدنيا، ومنادي الإيمان؛ وقد بان له أنّ القلبَ لم يتجافَ عن دار الغرور، وأنّه مشغولٌ بالجّاه وعلائق الدنيا. وما زال في دائه حتى وطّن النفس على مغادرة بغداد، فدخل الشام يطلبُ العزلة والرياضة والمجاهدة، يعتكف في منارة المسجد طوال النهار؛ ثم سار إلى بيت المقدس فالحجاز؛ ودام على ذلك

عشر سنين، حتى انكشفت له حقيقةُ التصوّف علـــى الوجـــه التالي:

- تتم طريقة التصوّف في رأيه بعلـــم وعمـــل؛ والعلـــم أيسر؛ غير أنّه لايُفضي إلى تفهم التصــــوّف علـــى الوجـــه الحقيقي. فالفرق بين من يعرف حقيقـــةَ الزهـــد وشروطِـــه وأسبابه، وبين من كانت حالُه حال الزُّهَّاد، كالفَرْق بين مـــن يُدرِكُ أسباب السُّكْرِ ، ومَنْ كان حالَهُ السُّكر.

إنّ أخصَّ خواصّ المتصوّفة لايمكـــن الوصـــول إليـــها بالتعلّم، بل بالذوق والحال وتَبَـــدُّلِ الصفـــات، لاعتبـــاره أنّ الصوفيّة " أربابُ أحوال لاأصحاب أقوال " .

- أقبل الغزالي على التصوّف وفي نفسه " إيمان يقيني بالله تعالى، وبالنبوة، وباليوم الآخِـــر "، فعلـــم أنّ الصوفيّـــة يسلكون طريقَ الله، فسيرتُهم أحسنَ السِّيَر، وأخلاقُهم أزكـــى الأخلاق؛ وكلُّ مافي ظاهرهم وباطنهم مقتَبَـــسٌ " مـــن نـــور مشكاة النبوّة، وليس وراءَ نورِ النبوّةِ على وجهِ الأرض نـــورٌ يستضاء به " . فطريقهم سبيلٌ إلى تطـــــهير القلـــب، وإلـــى استغراقه بذكر الله فالفناء بالكليّةِ في الله.

ورأى الغزالي أنّ للمتصوّفة فـــي أحوالـــهم مكاشفـــاتٍ ومشاهدات، يرتقون بها فيشاهدون الملائكـــــةَ فـــي يقظتِـــهم

وأرواحَ الأنبياء، "يسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد" . وهذه حالةٌ يتعذّر التعبيرُ عنها، وليس للذي بلغها إلاّ أن يقول:

وكانَ ماكانَ ممّا لستُ أذكرُهُ فظُنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبرِ

والذي لم يُرزَق نعمةَ هذا الذّوق الروحي لايعرفُ من حقيقةِ النبوّة غيرَ اسمِها. وهذه المكاشفات هي من كرامات الأولياء. والكرامات " بداياتُ الأنبياء " . ثم يضيف الغزالي إلى هذا قولَهُ بأنَّ التحقيقَ في شأن هذه الحال علم، وملابسة تلك الحال ذوق، وقبوله عن طريق التداول بظنٍّ حَسَنٍ إيمان. وفي مثل هذا الذّوق مرّ النبيُّ حين أقبل إلى "حِراء" حتّى قالت العرب: إنّ محمَّداً عشقَ ربَّهُ " .

غير أنّ للغزالي مآخذَ على المبادئ الفلسفيّة في التصوّف، إذ تهيّأ للمتصوّفة في قربهم ومشاهداتهم وأذواقِهم أنَّهم بلغوا الحلول والاتحاد والوصول، وكلٌّ ذلك خطأٌ في رأيه.

هكذا انتهى الغزالي، بعد هذا الصرع الفكري الروحي، إلى التصوّف؛ ولكنَّهُ تصوُّفٌ معتدِلٌ مرتَهِنٌ بالعقيدةِ والنبوّة، فإنّه يُنكِر على مذهبهم أبرزَ مبادئه الفلسفيّة، فيدحض الحلولَ، والاتحاد، والفناء، والوصول، ويردُّ نظرية وحدَةِ الوجودِ .

ثم جاء بحثُ الغزالي في النبوّة نقطةَ الانطلاق ونهايـــةَ المطاف معاً. فعلى ضوء الإيمان بها بنى منهجيّـــةَ تفكـــيره، وهدم الفلسفة، وناقش سائرَ الفِرَقْ؛ وبها اهتدى إلـــى راحـــةِ اليقين. ولعلَّ أوضح ماأورده بهذا الصدد فصلٌ عقدَهُ في نهاية المنقذ من الضلال ضمّنه خلاصة رأيه فيها.

فهو يرى أنَّ الإنسانَ خُلق ســاذجاً، ووُهــب طاقــةَ الإدراك المتدرّج من الحواسّ إلى التمييز، فإلى العقل الـــذي يـــدرك الواجبَ والجائزَ والمستحيل. وكما يقصّر النظرُ عـــن إدراك المسموعات، كذلك يعجزُ العقل عن تفهّم ماهو وراء طـــوره، مما ينطوي عليه المستقبلُ والغيب. ولكن ماهو السبيل إلـــى إدراك النبوة، والعقل مقصّر عنها؟ لقد مُنح الإنسانُ خاصيَّـــةَ النبوّةِ في " النوم " حيث يُطِلُّ على طَوْرٍ غيبيٍّ يأتيه صراحةً أو عن طريق المثال.

* * *

هذه هي بعض أفكار الغزالي الذي نشأ على التصـــوّف، وتدارس علمَ الكلام، وأوغل في طلـــب الفلســفة، فجــاءت حصيلةُ تفكيره مزيجاً من هذا كلِّه: أمّا التصوف، فقد بحثـــه على ضوء العمل التقوي المرتهن بالدين، وبسط فيه الخروج من آلية الفرائض وظواهرها، إلى مرتفعات الصلاة وارتقـــاء

الروح؛ وعرضَ للعمل الصوفي؛ وفيه النزاع القائم بين ميلٍ إلى الدنيا وصفاء قلب المَشُوق إلى حبّ الله، يقترب منه بالتوبة، والصبر، والفقر، والرجاء، والتوحيد، والتوكل، والمحبة، والرضا. وأمّا الكلامُ فحصر فيه حقَّ التأويل بالراسخينَ في العلم، ونهى العامة إلاّ عن الأخذ بالآيات القرآنية والأحاديث، ودعا إلى التقديس، فالتصديق، فالاعتراف بالعجز، فالسكوت، فالإمساك، فالكفّ، ثم التسليم لأهل المعرفة؛ ومجمل أقواله فيه مردودٌ إلى التسليم بحقيقة النبوة، والاعتراف بقصور العقل عن إدراك الغيبيات لأنّها وراءَ طَوْرِه. وأمّا الفلسفة فما روت غليلَ نفسه، فسفّه أقوالَ أربابِها وبدَّعهم في أمور، وكفّرهم في أخرى.

واكتنفته غمرة الشكوك، واحتواه ألم مرير، وانبرى يبحث عن منفذ يقوده إلى الطمأنينة القريرة، فلم يجد غير الإيمان والنبوّة هاديان والتصوّفُ العملي سبيلاً .

* * *

لنلاحظ معاً عظمة أجدادنا وقدراتهم العظيمة من خلال بعض النصوص التي كُتبت قبل ألف عام من الآن.

وللتدليل على ذلك نقتطف بعضَ مانحتاج إليه مما ورد في كتاب الغزالي الذي يحمل عنوان (رسالة أيها الولد) :

" أيها الولد! النصيحة سهلة، والمُشكلُ قَبولُها، لأنّها في مذاقِ متّبعي الهوى مُرّةٌ، إذ المناهي محبوبةٌ في قلوبهم، وعلى الخصوص لمن كان طالبَ العلم الرسميّ ...

أيها الولد ... العلمُ بلا عملٍ جنون، والعملُ بغير علمٍ لايكون.

أيها الولد! ينبغي لك أن يكونَ قولُك وفعلُك موافقاً للشرع؛ إذ العلمُ والعملُ بلا اقتداء الشرع ضلالة...

واعلم أن اللسان المطلَق، والقلبَ المطبَقَ، المملوء بالغفلة والشهوة، علامةُ الشقاوة؛ فإذا لم تقتل النفْسَ بصدق المجاهدة، لن يحيا قلبُك بأنوار المعرفة.

أيها الولد! إني أنصحك بثمانية أشياء اقبلْها منّي لئلاّ يكون عِلمُكَ خصماً عليك يوم القيامة. تعملُ منها أربعةً، وتدعُ منها أربعةً :

أمّا اللواتي تدع، فأحدهما: أن لاتناظرَ أحداً في مسألةٍ ماستطعت.

والثاني: مما تدع، وهو أن تحذر من أن تكونَ واعظاً ومذكِّراً، لأنّ فيه آفات كثيرة، إلاّ أن تعملَ بما تقول أوّلاً ، ثم تعظ به الناس...

والثالث : مما تدع، أن لاتخالط الأمراءَ والسلاطين ولا تراهم، لأن رؤيتَهم ومخالطتَهم آفةٌ عظيمة؛ ولو ابتليتَ بها دعْ عنكَ مدحَهم وثناءَ هم، لأنّ الله تعالى يغضبُ إذا مُدِحَ الفاسقُ والظالم. ومن دعا لطولِ بقائهم، فقد أحبّ أن يُعصى اللهُ في أرضه.

والرابعُ : مما تدع، أن لاتقبلَ شيئاً من عطاء الأمراء وهداياهم، وإن علمتَ أنها من الحلال، لأن الطمعَ منهم يفسدُ الدين؛ لأنّه يتولّدُ منه المداهنة ومراعاةُ جانبهم، والموافقة على ظلمهم...

هذه بعض النصائح التي بثّها الغزالي في رسالته منذ مايقرب من ألف عام فعلّنا ننتفع بها وبأفكار عظماء الإنسانية.

وفي صفحات تالية سنجد أهمية أفكار الغزالي واضحة من خلال تأثيره في باسكال، ومن خلال اقتباسات توما الاكويني الذي اعتمد حجج الغزالي للرد على الرشديين من أبناء ملّته، وفي تعبير الرشديين إشارة أيضاً إلى أهمية ابن رشد الذي تتلمذ على يديه نفرٌ من مفكّري الغرب الذين عُرفوا بالرشديين... فكان الغزالي حجّة للغربيين، كما كان ابن رشد حجّة لخصومهم أيضاً، مما جعل تأثيرهما كبيراً من خلال الأفكار التي طرحوها وأسهمت في تغيير العالم...



ابن باجة

كانت الأندلس بأيدي الموحّدين حين ولد ابن باجه، وفي عهد السلطان المنصور يعقوب بن يوسف ازدهرت الفلسفة، وكان حينها فيلسوفُنا شاباً.

ولد ابن باجه بمدينة سرقسطة من أعمال الأندلس في أواخر القرن الحادي عشر، وتلقّى فيها معظم علوم العصر.

سافر إلى اشبيلية ثم إلى غرناطة، ووفد على بلاط المرابطين في فاس وعمل طبيباً، ثم راح يكسب عيشه بفنون الحيل، وتلهّى بنظم الشعر الغزلي.

كان ابن باجه يشعر أنه غريب في العالم، لايأنس بصديق ولا يطمئنّ إلى مجتمع. عاداه الفقهاء والأطباء، وقيل إنه مات مسموماً.

ولابن باجة نحو ثلاثين رسالة في مختلف العلوم، أشهرها رسالة الوداع ورسالة تدبير المتوحّد. وهو أوّل

الواقفين في المغرب على فلسفة المشرق، فعبّد الطريق لمن جاء بعده.

يتحدث ابن باجة في (رسالة الوداع) عن غاية الوجود الإنساني التي تتمثّل في خروج الفرد من ذاتيته إلى النفس الكونية الشاملة.

ورأى أن الاتصال لايتم إلاّ بالعلم والفلسفة، فهما يُسعفان على معرفة الذات والطبيعة، واكتمال العقل، والتهيؤ لإدراك العقل المجرّد الفعّال.

وفي حين دعا الغزالي إلى العزلة والتنسّك، عدّ ابن باجة الدعوة إلى التصوّف والعزلة خداعاً للناس وتضليلاً، لأن العالم العلوي لاينفتح للمتصوّف المتنسّك الواهم، وإنما يطلّ عليه العقل الباحث عن كمال ذاته.

أما في رسالة (تدبير المتوحّد) فإن ابن باجة يدعو إلى تصوّف اجتماعي. فكيف يكون التصوف اجتماعياً وهو قائم على العزلة والانفراد؟

يقرر ابن باجة أن العلم الإنساني يتحصّل بمزاولة البحث في قلب المجتمع، شريطة أن يعيش طالب المعرفة متّبعاً أساليب الفضيلة، مقبلاً على الخير، مبتعداً عن الفساد.

ومبدأ تحصيل المعرفة في المجتمع لاينحصر في الفرد، وإنّما ينطبق على جماعة بشريّة عُنيت بالشؤون العقلية، ويُسمّى أفرادُها المتوحّدين، وهم جماعة تستدرج الناس إلى غايات الجماعة السامية، ويتكوّن بذلك مدينة في قلب المدينة، ويرأسهم فيلسوف، فتتكون منهم دولة المعرفة. وهؤلاء لايحتاجون إلى القضاة لأن علاقاتهم قائمة على المحبة، ولا يحتاجون إلى الأطباء لأنهم لايتناولون من الغذاء غير مايلائمهم.

والإنسان المتوحّد هو الإنسان الفاضل الذي يعيش في مدينة غير فاضلة، وما تدبير المتوحّد سوى تدبير هؤلاء الفضلاء الذين يطلق عليهم ابن باجه اسم (النوابت) تشبيهاً لهم بالنبات الذي ينمو من تلقاء نفسه بين الزرع. أمّا منهاج المتوحّد فينطوي على مجموعة واجبات أهمّها :

١- حفظ صحّته والعمل على استردادها إذا زالت.

٢- أن تكون حياته الجسدية من مطعم ومشرب وملبس وزواج مجرد وسائل للاستمرار في العيش كي ينصرف إلى أعماله الفكرية.

٣- ألاّ يصحب الذين يهتمون بحياتهم الجسمية وحسب، أو يسرفون في ذلك.

٤- أن يستعمل كذب الألغاز إذا اضطر إليه لمواجهة العوام.

٥- أن يعمل جميع أعماله لأنها صواب وخير، ولأنه يقصدها مختاراً من تلقاء نفسه.

٦- لايجوز له أن ينفعل أو يغضب أو يفرح أو يحبّ فيتأثّر في أعماله بهواه.

٧- لايجوز أن يأتي أعماله رغبة منه في أن يمدحه الناس.

٨- أن ينصرف عن التصوّف لأنّه وهم، وأن يعتمد على التفكير لبلوغ السعادة الحقيقية.

نزعته عقلية تنتصر للعلم والفلسفة، وتجعلهما الطريق الوحيدة للوصول إلى معرفة الطبيعة، ومعرفة النفس، وإلى الاتصال بالعقل الفعّال اتصالاً تكون فيه السعادة التي هي غاية حياة الإنسان ووجوده. ففلسفة ابن باجة هي (فلسفة السعادة العقلية).

* * *

ضمّن ابن باجه (رسالة الوداع) معظم آرائه الفلسفية سيما في الإلهيات، وقد نحى فيها باللائمة على الغزالي قائلاً: إن الطريق الصحيح في الوصول إلى الله هو التفكير والتأمّل الفلسفي لاالأحوال الصوفية. وأبدى في كتاب (تدبير المتوحد) إعجابه بالفارابي.

يرى أن المعرفة الصحيحة تُنال بالعقل، ومن شأن العقل أن يعرف من تلقاء ذاته، لابتأثير روحاني يَفِدُ عليه من خارجه، ذلك أن العقل الفعّال، وهو المعقول بالفعل، ينقل المعارف والعلوم إلى العقل الإنساني (الهيولاني)، وهذه المعارف تعود إلى العقل الفعّال بعد الموت، ويؤلّف مجموعُها العقلَ الإنساني الذي يخلُد في العالم. والنفس تتوسط بين الجسم والعقل فهي متحركة بذاتها.

ويمضي ابن باجة على غرار الفارابي ليتمم المدينة الفاضلة بكلامه على تدبير المتوحد.

ويرى أن المدينة الفاضلة يكون أهلها متحابّين ولا يتشاكون، وكل أعمالهم صواب، يقومون بالرياضة ولا يغتذون بالأغذية الضارة، فهم لايمرضون إلا عَرَضاً، ولا يكذبون، يعمل كل فرد ماعليه قاصداً نفع المدينة الفاضلة لأن الإنسان الفاضل جزء منها.

والإنسان المتوحّد هو الإنسان الفاضل الذي يعيش في مدينة غير فاضلة، وما تدبير المتوحد سوى تدبير هؤلاء الفضلاء في غير أهلهم، وهؤلاء الفلاسفة المتوحّدون إذا كثروا أسهموا في تحويل مدينتهم إلى مدينة فاضلة.

وابن باجه، الذي يُدعى ابنَ الصائغ، يضعُ منهاجاً لتدبير التوحيد ينطوي على واجبات، وهذا المنهاج مستمد من غايات ذات ثلاثة أنواع :

١- جسدية: يكتفي بها المرء فلا يرقى فوق عالم الحيوان.

٢- روحانية جزئية (خاصة): يحصل المرء بها على الفضائل الخلقية والعقلية.

٣- روحانية كلية (عامة): الكمال الإنساني المطلق.

والفيلسوف أو الحكيم أو المتوحّد يتدبر وجوده ولو وجد في مدينة ناقصة، فيحفظ نقاءه الجسدي، وينصرف إلى الأعمال الروحانية الجزئية كوسيلة لإكمال كيانه الإنساني، ثم ينصرف إلى أعمال الكمال الروحي، وهي أعمال عقلية واعية فيغدو كائناً متفوّقا إلهياً .

ابن طفيل

تمثّل ابن طفيل في كتابه الشهير (حي بن يقظان) سيرة الفلسفة العربية من زاوية نظرته الخاصة، ومضى على نهج ابن باجة حول استطاعة العقل البشري الوصول إلى الكمال التام باعتماد التفكير الذاتي وحده من دون أي نقل أو تقليد أو تعليم أو إرشاد فلسفي أو ديني.

وهذه الفكرة جاءت عَرَضاً في كتاب (النجاة) لـ (ابن سينا) ولكنّها أصبحت لدى (ابن طفيل) محور نشاطه الفلسفي كلّه.

حاول الفيلسوف في هذه القصة أن يشرح، بمثال متطرّف، مراحل التطور الطبيعي للإنسان في حالة خاصة، فانتخب مسرحاً لقصتّه جزيرتين، في إحداهما نرى الجمعية البشرية بتقاليدها وعاداتها المتوارثة، وفي الأخرى نجد الإنسان المحض في تطوّره مجرّداً عن تأثير المجتمع وأهله.

شاء أنْ يقرر أنّ جزيرة من جزائر الهند التي يتولّد بها الإنسان من غير أم ولا أب، وبها شجر يثمر نساءً، كوّنت

حي بن يقظان ولإقناع الناس جعل بإزاء تلك الجزيرة الهندية جزيرة عظيمة عامرة يملكها رجل شديد الغيرة، عضل أخته ومنعها من الأزواج، وكان له قريب يُسمّى (يقظان) تزوّجها سراً فحملت ووضعت طفلاً خافت عليه من افتضاح أمرها، فوضعته في تابوت وألقته في اليم، فاحتمله الماء إلى ساحل الجزيرة الأخرى فخرج (حي) الطفل من التابوت وبكى فأرضعته ظبية فقدت طِلالها.. ويحكي ابن طفيل، من ثَمَّ، نشأة الطفل مرحلةً مرحلة، ويصف، بالاستعانة بمعطيات المعرفة العلمية الذائعة في عصره، تفتُّح ذكاء (حي بن يقظان) واكتمال عقله حتى وصل بعد تسعةٍ وأربعين عاماً إلى أسمى مايمكن أن يصل إليه العقل البشري، ألا وهو الكشف الباطني لإدراك القوة الإلهيّة " إذ تحصل المشاهدة الصرفة، والاستغراق المحض الذي لا التفات فيه بوجه من الوجوه إلاّ إلى الوجود الواجب الوجود، والذي يشاهد هذه المشاهدة فقد غابت عنه نفسه وفنيت، وتلاشت، وكذلك سائر الذوات، كثيرة كانت أو قليلة، إلاّ ذات الحق " .

وعلى هذا النحو يتوّج ابن طفيل فلسفته العقلية والتطوريّة بضرب من التصوّف التجريبي الخالص، كل ذلك من غير احتياج إلى رفد الشريعة والتربية والدين.

وقد كان من الجائز أن تقف القصة عند هذا الحد لــــولا حرص الفيلسوف على إعلان رأيه في قضية التوفيـــق بيـــن العقل والنقل، ليظهر أن ماوصل إليه (ابن يقظـــان) بـــالنظر العقلي المحض لايخالف تعاليم الشريعة والدين. لـــذا جعـــل المؤلّف بطلَ قصّته يذهب إلى جزيرة أخـــرى قريبـــة مـــن جزيرته، وما يكاد يخالط أهلـــها حتـــى يتحقّـق لديـــه بُعْـــدُ جمهورهم عن الحق والصواب، فأدرك خطأه، حين حسب أنّ الناس جميعاً ذوو فطرة فائقة.

ثم تصفّح المذاهب والآراء، فرأى أن أصحابها لايدركون من الحقيقة إلاّ مايتفق مع مآربهم وأهوائهم، وقد كان في تلك الجزيرة، التي بلغتها تعاليم الإسلام، رجلان من أهل الفضـــل والرغبة في الخير، وهما (آسال) و (سلامان)، أولّـــهما أشـــدّ غوصاً على الباطن والتأويل، والآخر أكثر احتفاظاً بالظـــاهر وأبعد عن الباطن.

وبعد بحث وتدقيق يتبيّن للناسكَين أنّهما تطابُقُ المعقـــول والمنقول من جهة، وإخفاقُ الظاهر والباطن في الحقيقة مـــن جهة أخرى.

ويستخلص حي بن يقظان أنّ لغة الجمهور غير لغة الحكماء، ويصطحب معه (آسال) إلى جزيرته، حيث يعيشان للتأمّل.

ويعرب (ابن طفيل)، في قصتّه، عن رأيه في حقيقة الإنسان خلال تجربته الفلسفية النامية، من خلال جعل بطله يراقب موت الظبية.

ويرى أنّ الإنسان يشبه الحيوان بجزئه الخسيس الذي هو عالم الكون والفساد. ويشبه الأجسام السماوية من حيث روحه الحيواني الذي يسكن القلب ويبعث في البدن الحياة. وهو يشبه، أصلاً، الموجود الواجب الوجود من حيث نفسه الناطقة التي لاتوصف بشيء ممّا توصَف به الأجسام.

وعلى الإنسان بالشبه الأوّل أن يسلك، بقصد واعتدال، سلوكَ الزاهد الفقير في ميدان التصوف، يكتفي بالضروري من الطعام الأكثر وجوداً والأقوى توليداً ولا يستأصل أصوله ولا يُفني بذوره. وعليه بالتشبّه الثاني محاكاة الأجسام السماوية في صفاتها، بتطهير الجسم من الدَنَس، ثم بالحركة الدورية مشياً أو هرولة، حتى الإغماء، وهذا يحاكي طرق التصوّف. وملازمة التفكير في واجب الوجود لمشاهدته من حين إلى آخر.

وأما التشبّه الثالث، فهو تشبّه الإنسان بالله واجب الوجود، ويكون بالتشبّه من حيث ذات الله بعلم هذه الذات، ومن حيث صفات الله باطّراح الإنسان للأوصاف الجسمية حتى ينتهي إلى غياب جميع الذوات عن ذاته أوّلاً، وهذا هو الفناء الصوفي، ثم يقوده الفناء إلى الفناء نفسه، وهذا هو فناء الفناء.

وإذ ذاك لايبقى إلاّ الواحد الحق الموجود الثابت، ويستغرق الإنسان في حاله هذه، ويشاهد مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

تلك هي فلسفة ابن طفيل، وهي فلسفة مؤسَّسة على روح اعتزالية، تنكّرت للمدرسة الصوفية من حيث أنها تحدُّ قوّةَ العقل، وتجعلُ المشاهدة فقط عن طريق الحدس والرياضة الروحية. فالرياضة الزهديّة والصوفيّة عند ابن طفيل هي إطلاق قوى العقل من قيود المادّة.



ابن رشد

يُعدّ ابن رشد نقطة تحوّل شاهدة على انحدار الفلسفة العربيّة القديمة، بعد أن وصلت إلى ذروتها؛ ومتكأً مهمّاً لانطلاقة الفلسفة الغربيّة الوسيطة التي استفادت من سالفتها عبر ابن رشد الذي تأثّر به **الأكويني** و**بيكون** و**سبينوزا** و**ليبنتز** وغيرهم كثيرون.

عُرف ابن رشد بالشّارح، وهو اللقب الذي أطلقه عليه دانتي في **الملهاة الإلهيّة**، نظراً إلى جهوده في شرح **أرسطو**.

ولكنّ فيلسوفنا لم يكتفِ بالشرح، بل تعدّاه إلى قيادة معركة ضروس في مواجهة عداء الفلسفة وتحريم الاشتغال بها. وإبّان الحملة التي شنّها **الإمام الغزالي** على الفلاسفة في كتابه **تهافت الفلاسفة**؛ لم يكن من ابن رشد إلاّ التصدي، حيث تبنّى الدفاع عن الفلاسفة في **تهافت التهافت** الذي حاول

أن يفنّد فيه آراء **الغزالي**، ليبرّئ الفلاسفه، ويعيد إلى الفلسفة مكانتها، متابعاً خطّ ماجاء في كتابيه الآخَرين:

فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتّصال و مناهج الأدلّة في عقائد الملّة.

لقد حاول **ابن رشد**، في مجمل أعماله، إزالة التعارض بين الدين والفلسفة، لأنّه يعتقد أنّهما ينشدان حقيقة واحدة، وإن اختلفت طريقة الوصول إليها.

وكانت فلسفته ردّاً على **الأفلاطونيّة** التي تعتقد أنّ المعرفة تذكّر، فبرهن – متوسّلاً أفكار **أرسطو**– بأنّ المعرفة تحصيل إنساني يتمّ من خلال اكتشافات متلاحقة لظواهر العالم. وقد ساعده على إتمام مشروعه، عمله قاضياً وفقيهاً، تعوّد الحكم بعد البحث والتنقيب والتحليل. وقد استدلّ على وجوب الأخذ بالنظر العقلي من **القرآن الكريم**، وحاول إيضاح القواعد التي يجب أن يتّبعها الإنسان في تأويل مايحتاج إلى ذلك من أقوال الشرع، لإظهار الصلة بينه وبين العقل.

ابن رشد يُعاد اكتشافه، على المستوى العالمي، من جديد؛ وتُعاد قراءته في ضوء المتغيّرات الفكريّة العربيّة، حيث يجري استحضاره بوصفه ممثّلاً للعقلانية والمنهجية

في الفكر العربي القديم، فضلاً عن أن المشكلات التي طرحها، منذ ثمانية قرون، لاتزال مطروحة حتى اليوم، ويمكن تلخيصها في سؤال أساسي: كيف يمكن أن تكون العلاقة بين الديني والفلسفي؟

ولد ابن رشد في قرطبة في ظل الدولة الموحّدية التي كانت تحكم الأندلس، عمل في قضاء اشبيلية ثم قرطبة، وأصبح رئيس الأطباء في مرّاكش بعد **ابن طفيل** . وكان عام /١١٩٥م/ نقطة تحول سيئة في حياته، حيث صادر السلطان المنصور كتبه وأحرقها، ونفاه إلى **أليسانة** قرب قرطبة، نتيجة وشايات الحاسدين. وبعد ثلاث سنوات أدرك الخليفة غلطه، فأعاد الاعتبار إلى **ابن رشد** الذي لم ينعم بعودته إلى **مرّاكش** سوى أشهر توفي بعدها في الشهر الأخير من عام /١١٩٨م/ وله من العمر اثنتان وسبعون سنة، تاركاً خلفه أكثر من مائة كتاب ، أكثرها في الفلسفة والعلوم الإلهية، وبعضها في الطب والفقه والنحو واللغة والأدب وقد التهمت النار معظمها.

*   *   *

وقد أثّر **ابن رشد** في تاريخ الفكر الأوربي، فقد أخذ اليهود شروحه وترجموها إلى العبرية أو عملوا منها

ملخّصات، وكانت هذه الترجمات والمختصرات العماد الأكبر الذي بُني عليه العلم العبري ابتداءً من القرن الثالث عشر الميلادي. كما كان لفكره أثر عظيم في الحركة الاسكولاستية النصرانية، وما زالت آراؤه تحدث هزّة عميقة في الفكر الأوروبي بين معارض ومؤيّد. وقد أصبحت الرشدية شعاراً للعقلانيّة والدعوة إلى الحدّ من نفوذ الكنيسة، ولم تعد الرشدية وقفاً على جامعة السوربون في باريس، وإنّما انتقل وهجها إلى إيطاليا وانكلترة.

يبحث ابن رشد في كتابه **فصل المقال...**، في التوفيق بين الدين والفلسفة، ويحمل الأساس النظري للتأويل وفق المبادئ الآتية:

١- إن الدين على وفاق مع مايقرره العقل، إما بدلالته الظاهرة وإما بتأويل.

٢- إن القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضاً لنصل إلى المعنى الموافق للعقل.

٣- لابد من الفصل بين مايُؤوّل ومالا يُؤوّل. والأمور التي لايجوز التأويل فيها هي: الإقرار بوجود الله وبالنبوة وباليوم الآخر، أمّا ماعدا ذلك فقابل للتأويل بشروط، هي:

أ- احترام خصائص الأسلوب العربي في استخراج الباطن من الظاهر.

ب- احترام الوحدة الداخلية للنص الديني.

ج- مراعاة المستوى المعرفي لمن يُوجّه إليه التأويل.

وذلك كلّه من أجل التمييز بين ماهو حقيقة وما هو مجاز في النص الديني.

إنّ لكلّ من الدين والفلسفة كيانه الخاص، ومنهجه المستقل؛ ولكنهما يرميان إلى هدف واحد هو معرفة الحق ((والحقّ لايُضادّ الحقّ بل يوافقه ويشهد له)) على حد تعبير فيلسوف العقل ابن رشد.

أمّا التناقض أو التّضاد بين الدين والفلسفة، إنّما مردّه إلى الفقهاء والفلاسفة، الذين اتّبعوا طريقة الاستدلال بالشاهد على الغائب، تلك الطريقة التي تجمع بين عالمين مختلفين تماماً، عالم الطبيعة، وعالم مابعد الطبيعة؛ مع أنّه لايجوز قياس عالم الغيب المطلق على عالم الشهادة المقيّد.

وقد أُنتج مؤخّراً فيلم المصير للمخرج يوسف شاهين دار حول حياة ابن رشد ، وحين أراد المخرج إظهار تقدميّته عارضه بفقهاء أصوليين سحبت عليهم سمات الأصولية المعاصرة(!)، وجعله يرتع بين الحمّام والخمّارة بصحبة أناس

مشبوهين يحملون أسماء عبريّة، يحاربون من أجـــل حريّـــة الغناء (!).

* * *

إن عقلانية **ابن رشد** تفصل بين الدين والعقـــل بتحديـــد مجالات النظر فيهما، وتبرهن على انفصالهما وليـــس علـــى تناقضهما. فالمعرفة الدينية تستند إلى النص، والمعرفة العلمية تقوم على البرهان العقلي التجريبي.

وبالرغم من أن **ابن رشد** كان فيلسوفاً وفقيهاً وطبيبـــاً، فإنّه وعى هذه المسألة وكان يفصل بيـــن الميـــادين الفكريـــة المختلفة، حيث يستشهد بالقرآن الكريم وبالرسوم الأعظم في الخطاب الديني، **وبجالينوس** في مجالات الطب (ولا يخلـــط شعبان برمضان، كما يفعل حتى الآن بعض معاصرينا).

شرح فيلسوفنا **أرسطو** كما ترجم **جالينوس**، لكن شرحه **لأرسطو** لم يُثنه عن مخالفته، **فالأورجانون** الأرســـطي آلـــة المنطق الصوري المجرّد من المحتـــوى، وهـــو اســـتنتاجي معياري أحكامه وجوبيّة، خالفه **ابن رشد** بإرهاصات حـــول منطق العلوم التطبيقي الاستقرائي ذي الأحكـــام الوجوديـــة. فعقلانية **أرسطو** قاصرة، بينما عقلانية **ابن رشد** تقوم علـــى

البرهان، وتجلى ذلك في كتابه **الكليّات في الطب** حيث أكّد على الأقاويل البرهانية العلمية، وأهمل ماعداها.

لقد طلب أبو يعقوب يوسف الموحّدي من **ابن رشد** أن يلخّص **جالينوس**، فانشغل بالتأليف والتنظير والتلخيص، ومع ذلك فإن معلومات **ابن رشد** التشريحية تدلّ على أنّه مارس التشريح، وله قول في ذلك أنّه كلّما تعمّق في التشريح ازداد إيماناً.

وقد تصدّى **ابن رشد** لمذهب **جالينوس** القائل إن الكبد هو مركز القوة الغاذية في البدن، وهو الذي يزوّد البدن بالقوّة والأبخرة، لكن **ابن رشد** أدرك أن القلب هو المركز وهو رئيس الكبد لأنّ التشريح يُظهر أن الأعضاء كلّها تتصل بالقلب عن طريق الأوعية.

وهكذا تصدّى **ابن رشد** للمقتسات النظريّة في الطب في زمانه، فاقتحم آفاقاً جديدة توضّحت أهميّتها بعد قرون على يد **فرنسيس بيكون** الذي وضع أسس التجربة العلميّة في المعرفة.

ونورد فِقرة من مقدّمة **الكليّات في الطب** للتعرّف على منهج **ابن رشد** في التأليف: « إن صناعة الطب هي صناعة

فاعلة تصدر عن مبادئ صادقة، يُلتمس بها حفظ بدن الإنسان، وإبطال المرض.

وهذه الصناعة ليس غايتها أن تُبرئ ولا بُدّ، بل أن تفعل مايجب، وفي الوقت الذي يجب، ثم تنظر في حصول غايتها، كالحال في صناعة الملاحة وقيادة الجيوش...)) ((الصنائع الفاعلة تشتمل على ثلاثة أشياء: أحدها معرفة موضوعاتها، والثاني معرفة الغايات المطلوب تحصيلها، والثالث معرفة الآلات التي تحصل بها تلك الغايات في تلك الموضوعات...)).

إن فضل ابن رشد يكمن في تحديده وفصله بين مجالات المعرفة المختلفة، وفي إرهاصات قدّمها للفكر العلمي التجريبي.

* * *

أتى ابن رشد، بعد ان قضى (الغزالي) على الفلسفة في المشرق بكتابه (تهافت الفلاسفة)، فألف كتاباً في الرد عليه سماه (تهافت التهافت)، انتصر فيه للتجديد الفلسفي في الإسلام، وأراد إبطال ماذهب إليه الغزالي من تكفير الفلاسفة وحكم بأنهم مجتهدون يثابون إن أصابوا، ويعذرون إن أخطأوا.

ذكر ابن رشد أنه لاخلاف بين الشريعة والفلسفة، لأنـــه لاخلاف بين الدين والعقل وهذا يظهر مـــن خـــلال (فصـــل المقال) و (الكشف عن مناهج الأدلة ..) و (تهافت التهافت). وسعى ابن رشد إلى تنقية فلسفة ارسطو، وسماه بالفيلســـوف الإلهي. فإذا فهم مذهبه حق الفهم، لم يتعارض مـــع أســـمى معرفة يستطيع أن يبلغها الإنسان. وقال إن موضوع الفلســـفة هو البحث في التوحيد وحكمة الوجود. والدين هو الشريعـــة، وهو القانون الإلهي، أي أصول الإسلام. والفلسفة هي الحكمة التي تبغي المعرفة عن طريق البرهان، هي نظر بالموجودات من جهة دلالتها على الصانع. وعلينـــا الاســـتعانة بـــالمنطق وخبرات السابقين وفحص نتائجهم العقلية، وهذا يوجبه الشرع على الخاصة. فالفلسفة حق لأن الشرع أوجبها، فلا خـــلاف بين الشرع والحكمة. " فإن الحق لايضاد الحق" إذن فالحقيقة واحدة ولها طريقان (نظر فلسفي ووحي إلـــهي). وللشريعـــة معنيان: ظاهر وباطن، فإن اتفق الظاهر مع الباطن أُخذ بـــه، وإلاّ فيؤوّل مجازياً لاثبات أن الاثنين متفقان.

إن الفلاسفة قسموا القياسات إلى ثلاثة أقسام - يقول ابن رشد - :

١- برهانية : بها نحصل على معرفة يقينية فهي تقوم على مقدمات يقينية وترتكز على مبدأ أول من مبادئ العقل.

٢- جدلية : معرفة ترجيح واحتمال لأن المقدمات محتملة فتكون النتائج محتملة.

٣- خطابية : لإقناع السامع وتتركب من مقدمات واهية موافقة لعقلية السامع وعاطفته وتهدف إلى التأثير أكثر من الفهم.

وعلى هذا الأساس قسم ابن رشد البشر إلى أصناف ثلاثة:

١- البرهانيين: هم الفلاسفة وتأويلهم يقيني.

٢- الجدليين: هم المتكلمون وتأويلهم جدلي ويصلون إلى شاطئ اليقين.

٣- الخطابيين: هم العامة ذوي العقول الكثيفة والفِطَر الناقصة.

لقد خلق الله الناس على هذا التفاوت وجعل الشريعة في متناول الجميع، فمن الواجب إذن مخاطبة كل صنف بما يتناسب معه، فللعامة والجدليين الإيمان بظواهر النصوص، لأن الغاية من الشريعة ليست معرفة الحقيقة بل إيجاد الفضيلة والحث عليها.

ويمكن حل الخلاف بين الفلسفة والدين بوضع الحقائق الدينية بمستوى الحقائق الفلسفية، على طريق تجريد الحقائق الدينية من رموزها ثم اثباتها، وهذا هو التأويل.

وليست الحقيقة الفلسفية أفضل من الدينية ولكن التعبير الفلسفي هو الأكثر عقلانية. ويجب ألاّ يُصرَّح بالتأويل إلا لأهل البرهان، وبذا يحمل حملة عنيفة على المتكلمين والمتصوفة والغزالي. وهكذا وفّق الفيلسوف بين الدين والعقل عن طريق التمييز بين معنى العامة ومعنى الخاصة للشريعة. ثم يدافع عن الفلسفة ضد الاتهامات حول بعض القضايا في (تهافت التهافت).

هكذا نرى أن ابن رشد أعطى الحكمة أولوية مطلقة على الشريعة، وذلك على طريقة تجريد الحقائق الدينية من رموزها ووصفها بالاثبات.

فابن رشد اعتمد على أرسطو والمدرسة المشائية دفاعاً عن الفلسفة وإعلاءً لشأن العقل. وكانت طريقته هي الطريقة الجدلية التي اتخذت معه الطابع الكلاسيكي القائم على تقديم أقوال الخصم، ثم الرد عليها بأساليب فلسفية مختلفة يقودها المنطق السليم.



التصوف

ليس للصوفيّة تعريف جامع مانع، وإنّما هي اتجاه انبثقت عنه مدارس مختلفة، يتّصف أصحابها -عموماً- بأنّهم يبخسون العقل حقّه، ويعتقدون بأنه غير قادر على إدراك الحقيقة، وإنما يمكن الوصول إليها بالكشف الباطني.

وتتعدّد الآراء في أصل تسميتهم، فمن قائل هي من **الصفاء**، لأنّهم عُرفوا بصفاء القلب والتخلّي عن شؤون الدنيا. ومن قائل هي من **الصفّة**، أي من السقيفة التي كان يتعبّد تحتها الفقراء خارج مسجد المدينة، على اعتبار الشبه بينهم وبين نسّاك الأعاجم. ومنهم من يرجّح أن التسمية جاءتهم من تفضيل لبس **الصوف** تقشّفاً، وقهراً للنفس، وإيذاءً للجسد.

ومن تعريفات الصوفي، هو الإنسان الذي ينقطع إلى الله عن البشر، ويتميّز **بالتقشّف** والاستغراق في شؤون الرّوح.

ويريد الصوفي إذلال الجسد وقهره وحرمانه رغباته ليتمّ التحرّر منه، والعودة إلى النفس الطاهرة. لقد تلوّثت

النفس بأدران المادّة حين حلّت بالجسد، وكي تسمو إلـــى الله وتستمد منه المعرفة الصحيحة بالمكاشفة، لابد من الانقطـــاع للعبادة وترك شؤون الدنيا الفانية.

ويتّصف الصوفي بتنقّله الدائم بين حالتَي الحزن العميق والفرح العارم، عبر تجربتــه الخاصّــة. فــالصوفي يؤكّــد وباستمرار بأنه لاشيء كجسد حي، وبالتالي، لايعترف بأصالة وجوده إلاّ في حالات الانخطاف.

ويعيش الصوفي حالات روحية قد تلوح لنا بعيدة عــن العقلنة إلى حدّ الإسراف، لأنه يكتفي بمعاناة التوتّر الداخلــي العميق، ويحقق الإشراق المباغت إبّان حالات البسط فيحــبّ العالم والأشياء إلى حدّ الاتّحاد بها.

إنّ ظاهرات التناقض التي نتلمّسها لدى الصوفي تقتصر علينا وحدنا نحن الذين لم نعش حالات التوتّر المبــدع التــي عاشها الصوفي بوجوده كلّه. بينما تكون هذه الظواهر بعيــدة عن التناقض في رؤية الصوفي، انطلاقاً من كون الــهاجس الأبدي لديه يتمثّل في التسامي والتعالي.

وما دام الصوفي يتطلّع إلى اختصار الوجود واختزالــه واحتضانه، عبر تجربة الحنين الأبدي إلى الله، فــهو حزيــن أبداً، لذا يمتطي فرس الحب متطلّعاً إلى الفرح الكبــير مــن

خلال تجربة الاتحاد المستحيل. إنه ينأى بكل قواه عن العوالم الظلاليّة ليسرحَ في ملكوت الشهود القلبي للمطلق.

* * *

لاشكّ أنّ الرّمز الصوفي قد أغنى الأدب العرب، وكان – دائماً – مصدر إلهام كثير من الشعراء، ولكنّ هذه النفحات العظيمة لاتغفر لأصحابها كثيراً من الشطحات التي لايمكن تبريرها أو تصريفها لتؤدّي معنى لايمسّ قيم الدين التي يكنّ لها المؤمنون احتراماً خاصّاً.

التصوّف لم يكن طريقة واحدة، يعتمد أصحابها منهجاً موحّداً، بل اكتنفته طرائق عديدة عبر التاريخ، تشترك كلّها بالزهد وبالعمل على تطهير النفس... ولكنّ بعض الصوفيين اكتفوا بالشعائر الصوفية وحدها، وفقدوا الجوهر.

كان التصوّف زهداً عملياً، ثم تطوّر إلى فلسفة صوفيّة، بتأثير التعاليم الهندية البوذية، ثم دخل في دور التطرّف مع الحلاّج ، وما لبث أن انقلب إلى ادّعاء وشعوذة، وسمح أصحابه لأنفسهم في التقرب إلى الله بعد أن حظوا بالاتّحاد به، ولم يعودوا بحاجة إلى الوسائل للوصول إلى مرضاته.

والزهد – بشكله المتطرّف هذا– كان موجوداً في التنسك اليهودي، والرهبنة المسيحية، والتصوّف الهندي والفارسي... وسواها...

لقد أثّرت المسيحية في فكرة الحب الإلهي التي دعت إليها **رابعة العدوية**، وتشبّه السالك بالرّاهب. كما بدا تأثير الفلسفة الهندية واضحاً في فكرة الفناء وعقيدة الحلول، وأدت إلى بدعة حلقات الذكر، وفنون تعذيب الجسد، ونظام المشيَخة، وسلوك الطريق...

والفلسفة اليونانية أثّرت في فكرة الإشراق، والاتّصال، ومبدأ وحدة الوجود، فما الذي بقي من الإسلام في ذهن المتصوّفة الذين لجأوا إلى الحدس والخيال بدل الملاحظة والتجربة والاستدلال... بدل العلم الذي دعا إليه الإسلام في أول آية قرآنية { **اقرأ باسم ربّك الذي خلق** } .

وإلى جانب الآيات التي تحثّ على ذكر الله وتدعو إلى الإعراض عن الدنيا، والسعي لكسب الحياة الأخرى؛ هناك آيات أخرى تحثّ على العمل والكسب وتحصيل السعادة الدنيوية:

{ قل مَن حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطّيبات من الرّزق ... } .

والنبي العربي كان يتنعّم ولم يكتف بالزّهد والعبادة، ليقدّم مثلاً صالحاً ويؤكّد أنّه " لارهبانيّة في الإسلام ". ولم يتوانَ عن الحثّ على طلب العلم وإعمال العقل، ومقابلة الحجة بالحجة، وعدم الاكتفاء بالاعتماد على الكشف الباطني " فضل العلم خيرٌ من فضل العبادة " " لفقيه واحد أشدّ على الشّيطان من ألف عابد" . وفي حديث آخر: " لمّا خلقَ الله العقل فقال له أقبل فأقبل، قال له أدبر فأدبر" فقال ماخلقت خلقاً أشرفَ منك، منك آخذ وبك أعطي.

ولم يأذن النبي لأحد بابتداع طريقة تبعد عن كتاب الله وسنة رسوله الكريم.

* * *

يحاول الصوفيّون التقرّب إلى الله للوصول إلى طريق الحقّ الإشراقي. وهم، في سعيهم، يسعون إلى تطهير النفس كي تتمكّن من تقبّل الإلهام الإلهي، وذلك لايكون إلاّ بالتخلّص من أدوات الجسد ومطامع النفس، والتفرّغ للعبادة بعيداً عن حطام الدنيا ومفاسدها. وابن عربي واحد من أشهر المتصوّفة الذين صاغوا مذهب الصوفية ودعوا إليه. اعتقد ابن عربي أن العالم مظهر للألوهية، باعتبار أن الله والعالم شيء واحد، والاختلاف بين الله والعالم لايكون إلاّ من حيث الصورة.



ابن النفيس

وُلِدَ الحكيم علاء الدين القرشي الدمشقي الملقب بابن النفيس في إحدى ضواحي دمشق، ودرس الطب هناك مع صديقه ابن أبي أُصيبعة صاحب الكتاب المشهور " علوم الأنباء في طبقات الأطباء " على أيدي مشاهير علماء الطب في دمشق آنذاك. واشتهر بطول البال ولين الجانب، وكان طويل القامة نحيف الجسم، وقد عزف عن الزواج لكي يتفرغ للعلم وأهله. وكانت مدينة دمشق زمن ابن النفيس تحت حكم السلطان الأيوبي العادل سيف الدين، وكانت مزدهرة يفد إليها أهل العلم من كل فج، حيث اشتهر السلطان باهتمامه بالطب وأهله، فأنشأ مستشفيات كثيرة على نحوٍ لم يسبقه أحد. وكانت المستشفيات عامرة بمشاهير الأطباء. أما مصر فكانت حينذاك تحت حكم أمير أيوبي آخر هو الملك الكامل محمد الذي بلغته شهرة ابن النفيس العلمية الواسعة، فدعاه إلى مصر للإستفادة من علمه، وعيّنه رئيساً للمشفى الناصري ثم رئيساً للمشفى

المنصوري. وبقي ردحاً من الزمن في مصر متنقلاً بين هذين المشفيين متفانياً في خدمتهم حتى وقف قبل وفاته جميع أمواله وكتبه وداره للمشفى المنصوري.

حلّق ابن النفيس في سماء الأطباء، فكان من الأطباء الفريدين من نوعهم عبر العصور. وقد امتدحه الكثير من المؤرخين في تاريخ الطب إلى درجة أنهم لقّبوه بأبي الطب الإسلامي. قيل فيه: إنّه لم يكن في الطب على وجه الأرض مثله في زمانه، وكان في العلاج أعظم من ابن سينا، وكان في اللغة بارعاً، وفي الحديث والفقه حجّةً. جمع ابن النفيس إلى جانب الطب، علوم اللغة والفلسفة والمنطق والفقه والحديث. ومن كتبه (الموجز) وهو ملحق لقانون ابن سينا، وكتاب (شرح تشريح القانون) وفيه وصف لأول مرة لتاريخ الطب للدورة الدموية وتبيين بأن الدم ينقّى في الرئتين. وكان ابن النفيس من عباقرة أطباء التشريح، فقد قضى معظم حياته في دراسة الطب وتطويره نظرياً وعملياً وحثّ على تشريح جسم الإنسان لمقارنته بأجسام الحيوانات، محتجّاً بأن لذلك فوائدَ كثيرة، منها أنّ التشريح المقارن يعطي فكرة جيدة عن جسم الإنسان، والتشريح بوجه عام يؤدي إلى فهم وظائف الأعضاء. واهتم ابن النفيس بدراسة تشريح القلب

والحنجرة من خلال دراسة وظيفة التنفس داخل الرئة وانتقال الدم من الرئة إلى القلب ومن القلب إلى الرئة. وقد عرّف ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى (أي الدورة الرئوية) تعريفاً متقناً ليس فيه غموض أي التباس. وهو بهذا يعـــدّ مكتشــف المبادئ الأساسية للدورة الشريانية. وقد أوضح ابن النفيس أن الدم يظهر في الرئتين، حيث يخضع لعملية تكرير عن طريق احتكاكه بالهواء الذي يتلقاه الجسم من الجو الخارجي، وبـــهذا صحح أفكار جالينوس الخاطئة اعتماداً على مشاهدته العينية وتفكيره العقلي. والجدير بـــالذكر أن ميخـــائيل ســـرفيتوس الاسباني الذي عاش في القرن السادس عشر الميلادي ادعى أنه مكتشف الدورة الدموية الصغرى (أي الدورة الرئويـــة) وظلّ رجال الطب في العالم يتداولـــون هـــذا الإدعـــاء فـــي مؤلفاتهم حتى القرن العشرين. ومما لا يقبل الجدل أو الشـــك أن كلاً من سرفيتوس وهارفي اللذين وصفا الدورة الدمويـــة الصغرى، قد وقفا على نظريات ابـــن النفيـــس فـــي كتبـــه المترجمة من اللغة العربية إلى اللاتينية. إن اكتشافـــات ابـــن النفيس سبقت اكتشافات علماء أوربا بثلاثة قرون، ومع ذلـــك انتحل كثير من علماء أوربا اكتشافات ابن النفيس لأنفســـهم. وبقي انتاج ابن النفيس مطروحاً في مكتبات العـــالم طـــوال

مئات السنين، ولم يعِ علماء الطب قيمة إنتاج ابن النفيس إلا في السنين الأخيرة.

* * *

أما في الطرف الآخر، الجانب الأوربي، فقد سمي العصر الذي يبدأ من القرن التاسع الميلادي بالعصر المدرسي، لأن التعليم فيه كان يقوم به جماعة من الرهبان في مدارس الكنائس، وقد أنشأ (شارلمان) كثيراً من هذه المدارس في جميع أنحاء فرنسا، وكان مدرسوها من رجال الكنيسة الذين حاولوا أن يُلبِسوا أغراض الكنيسة ثوباً فلسفياً، ويمتد هذا العصر المدرسي إلى قيام النهضة الأوربية في القرن الخامس عشر الميلادي.

ولما كانت الكنيسة هي المهيمنة على زمام الأمور فإنها أسرفت في نفوذها إسرافاً كبيراً لدرجة أنها أفسدت الحياة وأصابت الفكر بالعقم والجمود، فقد تحكّمت في العقول حتى سحقت كل ضربٍ من ضروب الحياة والنشاط. ومن ثَمّ كانت أوربا في القرن العاشر ظلاماً دامساً تغلغلت فيه الجهالة وتفشّت في الرؤوس الخرافات، ولكن هذه السحابة المعتمة أخذت تنقشع بمجيء القرن الحادي عشر بما ظهر من كنوز العلم التي كانت دفينة في خزائنها في اليونان فأزيل عنها ما

غشيها من غبار، حيث أعادت الحروب الصليبيـــة الصـــلات بين الامبراطورية الغربية والامبراطورية الشرقية إلى قوتها، ولا شك أن ذلك بدّد شيئاً من ظلام القرن العاشر. ثُمّ جــدّت عوامل أخرى أدت إلى تجديد النشاط فـــي الفكـــر الفلســفي. وعلى أي حال فإن الفلسفة المدرسية لم تكن مدرسة فلســـفية متماسكة كمدرسة أفلاطون مثلاً، إنما هـــي جــهود فلســفية مبعثرة بذلها المدرسون وهم رجال الدين الذين أخذوا بذمـــام الفلسفة وجعلوها في حظيرة الكنيسة وحدها، لكي يستخدموها في شؤون الدين. ومما ينبغي الإشارة إليه أن فلسفة أفلاطون كان لها السيطرة والسيادة في الشطر الأول من هذا العصـــر المدرسي، فكانت الينبوع الذي يستقي منه المفكرون آراءهم، والأساس الذي يقيمون عليه مذاهبهم، ولعل السبب في ذلـــك يرجع إلى أن فلسفة أفلاطون كانت أقرب إلى تعاليم المسيحية من فلسفة أرسطو، لأنها تنزع نزعة عقلية روحيـــة، وتُثبـــت فكرة الإله الصانع لمعنى العالم، وتُثبـــت روحانيـــة النفْـــس وخلودها، وتميل إلى الزهد بخلاف فلسفة أرسطو. وإذا كـــان لفسفة أفلاطون الشطر الأول من العصر المدرســـي الغلبـــة والذيوع، فقد قُدِّر لفلسفة أرسطو في الشطر الثـــاني الذيـــوع والانتشار حتى رجحت كفّتُها على فلسفة أفلاطون، وغـــزت

المدارس والجامعات، ولم يكن هذا التحول في مجرى الفكـــر حادثاً عَرَضياً ساقته المصادفة، ولكنه نتيجةٌ مباشرة لِنهضـــةٍ فلسفيةٍ واسعة قام بها المسلمون. وقد بدأ الفكر الوسيط يتعرف تَعرُفاً حقيقياً إلى أرسطو وإلى المفكرين المسلمين حين اتصل هذا الفكر بالثقافة العربية المزدهرة بالأندلس، وأنشأ رئيـــس أساقفة (طُليطِلة) لأول مرة ديواناً للترجمة نُقِلت بوســـاطته من العربية إلى اللاتينية معظمَ كتب أرسطو الذي عاد إليهم – كما يقال – في عباءة عربية، ثُمَ تزايد الإقبال علـــى إنتـاج أرسطو زاحم الأفلاطونية وزحزحها عن مكانتها عند القـــوم، وتأكّد ذلك حين نُقلت الشروح الإســـلامية علـى أرســطو، وخاصةً شروح ابن رشد ومؤلفاته الدينية الخاصة، وذلك في القرن التالي الذي يُعَدّ العصرَ الذهبي للفلسفة الغربية. وعلى أي حال فإن المفكرين الدينيين في الغـــرب قـد اهتمــوا – كماصريهم المسلمين – بالتوفيق بين الحكمة والشريعة أو بين الدين والفلسفة، وهذا أمر طبيعي مادام كلاهما موضع التقدير والاعتزاز لدى هؤلاء المفكرين المؤمنين، ولكن لا ينبغي أنْ يُظَنَّ أنّ هذا هو كل ما تحويه تلك الفلســفة، فلــهذه الفلســفة مشاكلها المتصلة بالوجود والمعرفـــة، والمتعلقــة بالحريــة وبالعناية الإلهية وغير ذلك من القضايا الفلسفية العامـــة. وإذا

كان من الحق أنّ الفلسفة الوسيطة في الغــرب كــانت أقــلّ ازدهاراً منها في عصريهما السابق واللاحق فإن ذلك لا يقلل من أهميتها التاريخية ومن تفرّدها بمجموعة من المشكـــلات الخاصة ومن تأثيرها بالفكر الحديث. وفي نهاية هذه العُجالــة القصيرة التي نُقدمها عن فلسفة العصور الوســطى سـنشير، بإيجاز، إلى اثنين من أبرز رجالها في فترة ازدهارها وهمـــا يمثلان – إلى حدٍ بعيد – روح العصر التي تتّسم بالجمع بين الإيمان والعقيدة المسيحية، والثقة بالمنـــهج العقلي النظـــري، والتطلّع إلى دراسة طبيعية تجـــــريبية. فمــــن الفلاســفة المتأثرين بفلسفة أفلاطون، القديس (أنسليم) الـــذي بســبب نباهته وبُعْد صيتِه أصبــح يُعــرف بيــن معاصريــه باســم أوغسطين الثاني، وكان فـــي حياتـــه مثـــلاً أعلـــى للرجــل المدرسي، يتخذه الناس أُنموذجاً يُحتذى. أما عن فلسفته فقـــد استهلها بتقريره أن العقل والعقيدة ليسا نقيضين، وأنه لا بـــدّ للعقل أن يستنير بضوء العقيدة، لأن العقل ضعيـــفٌ بنفســه، ومعنى ذلك أن أنسليم يريد أن يستعين بـــالعقيدة علـــى فـــهم حقائق الكون فهماً عقلياً، وبذلك وضع قاعدة أخرى بجـــانب قاعدة شائعة حيث كان الناس يقولون (إنني أعتقد لأنّ الفـــهم مُحال) اعترافاً منهم بقصور العقل واستحالة فهمـــه لحقـــائق

الأشياء، أما أنسليم فقال (أعتقد لكي أستطيع أن أفــــهم) أي أنه يعتنق العقيدة لكي تكون وسيلةً تنتهي بــــه إلــى الفــهم. وأنسليم هذا هو صاحب الدليل الأنطولوجي الذي أثــر علــى ديكارت فيما بعد. وخُلاصة هذا الدليل أن النـــاس مُجمِعــون على تعريف الله بأنه أكبر كائن يُمكن أن يتصوره العقل، فإذا تَصَوَّرَ العقلُ اللهَ تصَوُّرَهُ كاملاً، وهذا الشيء الكامل الموجود في الذهن يجب أن يكون موجوداً خارج العقل وجوداً فعليـــاً حقيقياً، لأنه لو لم يكن كذلك لما كان أعظم من أي كائنٍ آخر يُفكِّرُ فيه العقل، ولا شك أن هذا العظيم نتصوره بعقولنا يكون أكمل في حالة وجوده وجوداً حقيقياً أكــثر منــهُ فــي حالــة اقتصاره على أن يكون مجرد فكرة في الذهــن، وإذا كــانت عقولنا تأبى إلا أن نتصوره في أكمل حال فقــد تَحَتَّــم إذاً أن نُسلِّمَ بوجود الله.

* * *

توما الأكويني

ولد (توما الاكويني) في أسرة إيطالية وتعلـــم فـــي جامعة نابولي، ثم درس على يد ألبرت الكبير فـــي كولونيـــا وباريس حيث تخرج وحاضر. ويُعد الإكويني أبرز مفكـــري الغرب في العصورِ الوسطى وأدقّهم فهماً وعرضـــاً للفلســـفة المشائيّة الخالصة، وربما كان أعرفهم بتراث العرب الفكري وخاصّة تراث ابن رشد، ولا نبالغ إذا قلنا أنّه قد أفاد كثـــيراً من هذا الفيلسوف المسلم.

وإذا كان بعض مؤرِّخي الفلسفة الغربيين قد حـــاولوا إنكار العلاقة بين رشد والإكويني وإنكار تأثّر الثاني بـــالأوّل، ونظروا إليهما كخصمين لا يمكـــن التوفيـــق بينـــهما، فـــإنّ المستشرق الأسباني آسين بلاسيوس قد أثبت في مؤلّف خاص الطرقَ المباشرة وغير المباشرة التي وصلـــت مـــن خلالـــها فلسفة ابن رشد الخاصة – وليست شروحَه على أرسطو فقط – إلى الإكويني. وانتهى إلى القول بأنّ الآراءَ الدينيـــة لـــدى

توما الإكويني هي ترجمة دقيقة لآراء ابن رشد الدينية الحقيقية. ويُعدُّ فكرُ الإكويني خطوةً تقدميّة في العصور الوسطى من الناحية الفلسفية، وسنشير إلى جوانب من فلسفته فيما يلي:

يرى أنّ الفلسفة والدين ليسا نقيضين، ولكنهما في حقيقة الأمر خطوتان متتابعتان تُكمل إحداهما الأخرى في تحصيل المعرفة، فإن الإنسان يبدأ في تحصيلها باستخدام ملكاته العقلية ثم يتناول ما حصّله فيمحّصه بالعقيدة والإلهام حتى يبلغ به درجةً بعيدةً من الكمال واليقين، فليس للإنسان محيصٌ عن الوحي يكملُ به قواهُ الطبيعية الناقصة العاجزة بذاتها عن الوصول إلى الحقائق العليا.

ولا شك أنّ الإكويني كان يحاول تأكيد الاتفاق والتكامل بين الدين والفلسفة والإيمان – في نظره – متمايزان من حيث الموضوع ومن حيث المنهج، إذ إنّ موضوع الفلسفة طبيعي مكتسب بالعقل، وموضوع الإيمان فوق الطبيعة معلوم بالنقل، ومنهج الفلسفة البرهان، ومنهج الإيمان الاستناد إلى الوحي. غير أنّ هذا التمايز لا يعني أن يبقى الإيمانُ والفلسفة منفصلَين في عقل المؤمن، فإنّ للإيمان هيمنةً على الفلسفة بإقرار العقل نفسِه الذي يعلمُ وجودَ الله،

ويعلمُ أنّ وحيَ الله واجبُ الاحترام، وللفلسفة أن تتطلع إلى الإيمان باعتباره الحقيقة الكبرى وأن تحاولَ تفهُّمَهُ بقْدرِ المُستطاع. ويرى الإكوين أنّ الإنسان خيرٌ بجسمه وروحه، وأنّه لا يوجد شرٌ في المخلوقات بالطبع، ومبدأ الخطيئة لا يعني هلاكَ الإنسان بالضرورة، فعقلُهُ قادرٌ على التفكير في الخير، وإرادتُهُ صالحةٌ لتنفيذه، وإن كان لا يستطيع التصرُّف كمسيحي حقيقي إلا برحمةٍ ونعمةٍ من الله. هذا وقد صار مذهب الإكويني في الفلسفة والاهوت لعمقه وإحكامه مذهباً شبه رسمي للكنيسة الكاثوليكية، ولعلَّ ما فيه من نزعة عقلية رصينة كان تمهيداً مناسباً لما سيصير إليه الفكر الأوربي في عصر النهضة، وبداية العصر الحديث.

* * *



ابن خلدون

كان موسى بن ميمون عالماً في الطب، ينظر إليه كثيرون كواحد من رجال العلم العظماء في التاريخ. كان بعمر الثالثة عشرة يقيم في قرطبة بإسبانيا عندما فتح جيش العرب المغاربة المنطقة بأسرها وأخذوه معهم إلى المغرب حيث كَبُرَ تحت تأثير الديانة الإسلامية التي أحبّ تعاليمَها، وعندما قارب العشرين ذهب إلى مصر ليعيش بطريقتها الخاصة، فدرس الطب وعيّن طبيباً لوالي مصر. وبقي في المنطقة بعد أن أصبح صلاح الدين والياً لمصر، بل حتى بعد سيطرته على زمام الأمور وتنصيب نفسه سلطاناً عليها، حيث أحسن صلاح الدين معاملته. كان ابن ميمون فيلسوفاً أيضاً ودوّن كلّ ماآمن وفكّر به، وكتب خلاصةً وافية للقانون العبري، وجمع حوله عدداً من التلاميذ الذين نشروا أفكاره خارج البلاد.

* * *

ثم جاء روجر بيكون وهو عالِمٌ وكيميـــائي إنكلــيزي.
واحد من ألمع علماء القرن الثالث عشر في أوروبـــا، كـــان
أستاذاً في أوكسفورد وتخصَّص بالكيميــاء، واكتشــف قــوّة
البارود، وسرعان ماسخَّر المهندسون اكتشافه هذا من أجـــل
الحرب، فكانت المدافع الأولى التي تطلق كرات مدفعية كبيرة
على منشآت العدو، وكثيراً ماكانت تنفجر من تلقاء ذاتها بين
أيدي القائمين عليها. قام بيكون بتجارب عديدة فــي مختلــف
المجالات واخترع الزجاج المكبِّر، لكنَّ أعماله أثارت الشكوك
في الكنيسة فسُجن أكثر من مرة لفترات طويلة، كتب خلالها
كثيراً من الأبحاث من الرياضيات والفيزياء والقواعد.

* * *

أمّا دانتي فهو شاعر فلورنسي، ولعــلّ دانتـــي أفضـــل
شعراء إيطاليا، وواحدٌ من أعلام عصر النهضة فيــها، كـــان
معاصراً وصديقاً للرسام غيوتو، ويبدو أنه درس فـــي عـــدة
أماكن تعليمية مثل بولونيا وباريس وأكسفورد، وكن عليه أن
يحارب، وأن يوظَّف في أعمال رسمية، لكنّه اشتُهر بالكوميديا
الإلهيّة وهي قصيدة شعريّة فلسفيّة تتحدّث عن رحلة خياليـــة
عبر الجحيم والمطهَر والجنّة. ويبدو تأثير قصّـــة الإســـراء

والمعارج واضحاً عليه، كما أنّه تـأثّر بـالمعري ورسـالة الغفران.

* * *

أما جيوفاني بوكـاشيو فـهو كـاتب إيطـالي اشتُـهر بمجموعةٍ قصصيّة مؤلَّفة من مائة قصـة قصـيرة أسـماها "ديكاميرون" وهي قصص خيالية إلى حد كبير، تجمع الفجور مع الأسى والإشفاق، وكتب بلغة إيطالية رقيقة لطيفة. كـان بوكاشيو معاصراً لبترارك وصديقاً له ومعجباً به. وقد شغـل وظائف ديبلوماسية. كتب بوكاشيو إضافـة إلـى مجموعـة "الديكاميرون" عدداً من الكتب الهامة، منـها "حيـاة دانتـي" وبعض المنظومات الجميلة من نوع "السونيتا" وهي قصيـدة غنائيّة مؤلَّفة من أربعة عشر بيتاً. وقد سار على نهجه كثـيرٌ من الكتّاب والشعراء فيما بعد، منهم شكسبير.

* * *

في تلك الآونة ظهر ابن خلدون وهو من أبناء العربيـة القليلين الذين ترجموا لأنفسهم، ذكرنا منهم في ماسبق الشيـخ الرئيس ابن سينا، وأبا حامد الغزالي في ماتركـه لنـا فـي "المنقذ". لكنَّ الأوّل لم يكمل ترجمتَهُ، فاستأنف تدوينَها تلميذُه أبو عبيد الجوزَجاني في حين اكتفى الثاني بالإجمال، وألمَّ –

أكثر ماألمّ – بالمشاغل الفكريّة لابالتفاصيل التاريخيّة. أمّا ابن خلدون فقد تحدّث عن نفسه بإسهاب، وساق الكلامَ إلى مايقرب من خاتمة عمره؛ فقد ألحق هذه الترجمة المطوّلة بكتابه التاريخي المشهور، كأنّما قصد أن يجعلها مسكَ ختامه، أو أن يلتمس لاسمه الخلود بإثبات سيرته على هامش مؤلّفه الضخم.

على أننا لن نسترسل في الحديث عن تفاصيل حياته كما استرسل هو، أو كما فعل مؤرّخوه، بل سنقتصر منها على مايفي بتعريفه، وإيضاح شخصيّته وإبراز مواهبه فحسب، كما فعلنا في الترجمة لزملائه السابقين. وسنبدأ بالحديث عن ملامح عصره.

إنّ تاريخَ المغرب والأندلس مزدحمٌ بالحوادث، حافلٌ بالفِتَن والحروب والانقلابات السياسية، لاسيّما بعد زوال الحكم الأموي.

إنّ الاستقرار السياسي انقضى بانقضاء الحكم الأموي في الأندلس، والفتن الداخلية نشبت بين ملوك الطوائف. على أنّ الاستقرار النسبي الذي نعمت به البلاد داخليًّا في عهد المرابطين ثم الموحّدين، لم يلبث أن تلاشى، ليعودَ الوضعُ إلى نحو ماكان عليه في عهد ملوك الطوائف، بل إلى ماهو

أسوأ؛ إذ كان ملوك الاسبان قد تمكّنوا من إحـــراز مكاســب إقليميّةٍ كثيرة من أُمَراء العرب في الأندلس، وكـــانوا – فـــي العهد الذي نؤرّخ – قد غلبوا بنـــي عبّـاد علـــى اشبيليـــة، وضمّوها إلى ملكهم. وكان المغرب من أدنـــاه إلـــى أقصـــاه إمارات كثيرة متنافرة، يحكمـــها أمـــراء طوائـــف تحفزهـــم الأطماع، وتمزّقهم الخصومات، منهم: الحفصيون في تونس، والمرينيون في مراكش، والمهديون في بجاية، وبنو نصر في غرناطة، وبنو عبد الواد في تلمسان.

ولمّا لم تكن هنالك سلطة مركزية تشدّ أواصر البـــلاد، وتعمل على وضـــع حـــدٍّ للأطمـــاع الفرديّـــة، والنزعـــات الاستغلاليّة؛ ولمّا كانت هذه الإمارات إنّمـــا نشـــأت – فـــي الأصل – عن طريق الاستئثـــار بالسلطة، فقـــد زيّـــن هـــذا الوضع للكثير من أرباب الطموح السياسي، أن يســـعوا إلـــى السلطة بكل وسيلة، لايتورّعون من أجـــل ذلـــك عـــن دسّ الدسائس، وحبك المـــؤامرات. حتـــى إذا وجـــدوا الوضـــعَ ملائماً، جاهروا بالعصيان ، وعمدوا إلى القوّة يطلبون السلطة عن طريقها.

وقد كان صاحبُنا ابنُ خلدون أحدَ هؤلاء. فقد كان بعيـــد المطامع، عظيمَ الجرأة، كثيرَ المغامرة، متفانيـــاً فـــي ســـبيل

إحراز النفوذ، والوصول إلى الحكم. وقد كان له من تـــاريخ أسرته، ومآثر جدوده في السياسة وفي القضــــاء، مــاعتبره مبرّراً لطلب السلطة. ولذلك أجاز لنفسه دسّ الدسائس وحبكَ المؤامرات.

هذا هو الجو السياسي الذي عاش فيه ابن خلدون؛ ومن خلاله نرقب أحداثَ حياته ومراحل سيرته.

* * *

حياة ابن خلدون شديدة الشبه بالتـــاريخ السياســي فـــي المغرب والأندلس، إنّ من حيث ازدحام الحـــوادث وســرعة تواليها، أو من جهة شدّة تعقّدها وتداخلها. ولمّا كانت غايتُنـــا الأولى من استعراض حياته اســتجلاء آرائـــه الاجتماعيـــة، والوقوفَ على مناحي تفكيره، بردّهـــا إلـــى أحـــوال البيئـــة والتجارب، لم نجد موجباً لاقتفاء أثـــر المـــؤرّخ فـــي ســـرد الأحداث بسياقها الجاري. بل آثرنا الوقوف منها عند المراحل الرئيسة.

يعود النسب بابن خلدون إلى عرب الجنوب، ويتّصـــل نحواً من الاتّصال بأمراء كِندة الذين ملكوا على بنو أسد فـــي نجد، وكان آخرُهم حجر والد امرئ القيس، الشاعر الجـــاهلي الأشهر. ثم استوطنت ذرّيتُه مدينةَ اشبيليـــة، وكـــان لبعـــض

أفرادها شأنٌ يُذكر في سياسة البلاد. وفي منتصف القرن الثالث عشر هاجرت أسرةٌ منهم إلى تُونس، في مَنْ هاجرَ من العرب إلى إفريقيا، على إثرِ اشتدادِ حملات الإسبان على الإمارات العربية؛ وفي تونس وُلد فيلسوفُنا الاجتماعي الكبير.

كان جدوده الأدنونَ من أهلِ العلمِ والفضل، والمكانةِ السياسية الرفيعة. أهم ماشغل ابن خلدون من الوظائف الإدارية: الكتابة والقضاء. فقد كان منشِئاً بليغاً، كما تشهد له بذلك مقدّمتُه؛ فرُغِب فيه من أجل ذلك، وأتاحت له هذه البراعة فرصةَ التقرّب من الأمراء والحكّام، ومهّدت له السبيل إلى المعترَك السياسي، فقد عُين كاتباً في البَلاط التونسي. وانتقل بعد بضع سنوات إلى مدينة فاس ثم رحل إلى غرناطة، وأمّا القضاء فقد تولاّه في فاس، ثم شغله في مصر حيث عُيِّنَ قاضياً للمذهب المالكي ثم قاضي القضاة. وكان إلى ذلك يُدرِّس الفقه المالكي في الجامع الأزهر، ثم في المدرسة الظاهرية، فالمدرسة السلطانية، ويحاضر في موضوع طبائع العمران، كما عالجه في مقدَّمةِ تاريخِه.

وقد توزّع نشاطُه السياسي بين دورين هامّين متعارِضَين: أحدهما الاشتراك في المكايد السياسية، والثاني السفارة السياسية بين الإمارات والدول. وقد سُجن غير مرّة.

وهكذا كان شأنه : كلّما بدا له وجه الظَّفَر في جانب أمير، التمسَ عندَه الحظوة، دون أن يتحرَّجَ من خيانةِ الأمير الذي هو في خدمته، وذلك تحقيقاً لأطماعه التي لم تكن تقف عند حد. ومع أنّه لم يوفَّقْ مرّةً في عملٍ من أعمال الدس، فإنّه لم يتّعظ بفشله، ولم يقنط من وسائله. وقد عُرف عنه أنّه ماكان يقصد بلداً إلاّ نشأت فيه القلاقل، حتى تنكّرَ أمراءُ المغرب له، ونبا به المقام هنالك، فلجأ إلى مصر.

وإنَّ نجاحَه في مهامّ السفارة بين الدول في أحرج الظروف الحربية، لَدليلٌ قاطعٌ على دهائه السياسي؛ والظاهر أنّ مساعيه السياسية لمصلحةِ سواه كانت أوفر نجاحاً منها لمصلحته هو.

وفي فترة من فترات يأسه من الأحوال، وسأمِهِ من السياسة، خطر له أن يُشرعَ في وضع مؤلَّفٍ ضخمٍ في التاريخ، يحرّرُه - بفضل خبرته الطويلة للحياة وشؤون المجتمع - من العثرات التي طالما شانت المدوّناتِ التاريخية. وقد تبلورت عنده هذه الفكرة عندما وجد نفسه بين آل عريف، نزيلاً في قلعة ابن سلامة. عندها صحّ عزمُهُ على التأليف، فأرسل إلى أمير تلمسان يعتذر له عن ترك السفارة التي كلّفه بها، رغبةً في العلم عن السياسة. وعكف على وضع المقدّمة

فأنجزها في خمسة أشهر؛ جعل موضوعَها "العمران البشري ودواعي نشوئه وأسباب انحلاله"، فجاءت كتاباً فريداً في منهجه، منقطع النظير في طرافة أبحاثه.

ترك ابن خلدون مؤلَّفاً واحداً؛ سلخ في وضعه الشطر الأكبر من عمره، وأفرغ فيه خلاصةَ اختباره الواسع وعلمه الجَم. ولَئِن كان هذا المؤلَّفُ واحداً بالعدد، فإنّه - باعتبار مشتملاتِ مقدّمته وجِدّتِها - بمثابة مكتبة جامعة في المجتمع البشري ومختلف شؤونه.

إنّ المهمّة الكبرى التي وقف ابن خلدون عليها جهدَه الأقصى هي تدوين التاريخ. كانت عنايتُهُ موجَّهةً، في الدرجة الأولى، إلى تاريخ المغرب والأندلس، ثم إلى الدول العربية الشرقية. ويبدو أنّه، بعد أن فرغ من تدوين تاريخ هذه الحقبة، خطر له أن يستكملَ هذا التاريخ بإثبات خلاصةِ ماأورده المؤرّخون عن العهود القديمة.

ولقد كان مستنَدُه في تدوين تاريخ المغرب والأندلس على مدوّنات موثوقة وميسورة، وعلى ماعرفه بالذات من التاريخ المعاصر؛ أمّا المدوَّنات الخاصّة بالدول العربية الشرقية فقد وجد ماتأخّر منها أوثقَ ممّا تقدم، لأنّ القديمَ منها إنّما نُقل بالتواتر، فلم يخلُ من الخطأ أو الدس وسوءِ النقل.

وأمّا التاريخ القديم فقد حفل بالأخطاء، وخلا مـــن التدقيـق، واعتمد النقل، بلا إعمال رؤيّة ولا إجراء تحقيق.

وغالب الظن أن ماتجمّع له من المآخذ على المؤرّخين، وما انكشف أمامَهُ من أخطائهم، هو الذي دعاهُ إلـــى وضـــعِ مقدّمته في طبائع العمران، بعد أن مهّد لها ببحث أظهر فيـــه أخطاءَ المؤرّخين، وحلّل أسبابَها، وبيّن دواعيها. وقد اعتمـــد في نقده هذا على عرض المنقول على المعقول، والبحث عن الأسباب، والنظر في النتائج، كما يفعـــل العـــالِم فـــي درس ظواهر الطبيعة.

ولقد كان جُلّ اعتماده في مادة التاريخ القديـــم وتـــاريخ الدول العربية الشرقية على الطبري والمسعودي وابن الأثير. وأبرز ماأخذه من الأخطاء عليهم وعلى أمثالهم:

الميلُ مع الهوى، والتشيُّع للآراء والمذاهب؛ والـــتزلّف لذوي السلطان طمَعاً بالحظوة والكسب؛ وأخذُ الأخبار علـــى علاّتها ثقةً بالمنقول عنهم؛ ومطاوعةُ وســـاوس الإغـــراب، والذهول عن المقاصد؛ والجهلُ بطبائع العمران.

على أنه لايكتفي، عند ذكر الأخطاء، بالإشـــارة إلـــى مواطنِها، بل يورد عليها الشواهد، ويضرب لـــها الأمثـــال؛ ويحاول مع ذلك أن يردّها إلـــى أســـبابها، ويعلـــل ســـقوط

المؤرّخين فيها؛ فيذكر من ذلك: غفلة المؤرخين عن تطـــوّر أحوال الناس مع مرور الزمان، وعن اختلافهم مـــن حيـث الأخــلاق والعادات والنزعات والمذاهب، ممّا يـؤدّي حتمـاً إلى الخطأ الفادح لدى قياس "الماضي بالحـــاضر، والغـائب بالشاهد". ولئِن كان "الماضي أشبه بالآتي من الماء بالمـــاء"، فإنّما ذلك يصحّ - في رأيه - بعد اعتبار الفوارق الزمانيّـــة والإقليميّة، والخصائص العرقيّة والعقليّة والنفسيّة.

هذا النظر الجديد إلى حوادث التاريخ من جهة عللــها، وباعتبار عواقبها، أعطاه مفهوماً جديداً للتاريخ؛ إذ لم يعد في جوهره جدولاً من الأحداث، ومساقاً من الأخبار؛ بل اصبـــح درساً للحياة الإنسانية، وما تلقّـاه مـــن دواعـــي الازدهـار، وعوامل التطوّر، وأسباب الانحلال. فقد جـــاء فـــي وصـــف مفهومه للتاريخ أنّه "خبرٌ عن المجتمع الإنساني، وما يعرض لطبيعته من الأحوال مثل: التوحش والتأنّس، وتغلّــب البشــر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الممالك والـــدول، وما ينتحله البشر في أعمالهم من الكسب والمعاش والعلـــوم والصنائع". فظاهر أن الخبر الذي يعتبره مادّة للتـــاريخ هـــو المتعلّق بالمجتمع الإنساني، من حيث تطوّر الحياة، وتشعّـــب الصنائع، وازدهار العلوم والفنون. وهكذا يتحوّل عنده التاريخ

إلى علم ذي أصول وقواعد وأغراض وأهداف. ولعلّه السابق إلى تحويل التاريخ إلى علم إنساني.

هذا النهج الذي سار عليه ابن خلدون في معالجة التاريخ انتهى به إلى نتيجتين عظيمتين: فقد أفضى بحثُهُ في أخطاء المؤرّخين، وتحقيقُه في عللها، إلى علم التاريخ؛ وأدّى كلامُهُ على تطوّر المجتمع البشري، وطبيعة العمران، إلى فلسفة الاجتماع. وهو في كلتا الحالتين يشعر أنه يأتي بجديد: ففي الحالة الأولى ينبّه على حقيقة التاريخ، ويعطيه مفهومَهُ الجديد "وهو خبر عن المجتمع الإنساني وما يعرض لطبيعته..."، وكأنّ هذا علم مستقل بنفسه؛ فإنه ذو موضوع، وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني؛ وذو مسائل، وهي بيان مايلحقه من العوارض والأحوال لذاته، واحدةً بعد أخرى". ثم يأخذ في وصف أهميّة هذا العلم، وطريق الاهتداء إليه، فيقول: " واعلم أن الكلام في هذا الغَرَض مستحدَثُ الصنعة، غريبُ النزعة، غزيرُ الفائدة.

ومع أن ابن خلدون قد شدّد على صفة الاستقلال الموضوعي التي يتميَّز بها علمُه الجديد، إلاّ أنّه لم يخطر له أن يعرِّفَهُ باسمٍ خاص. وبقي علمُهُ هذا غُفْلاً من اسم يُعرَفُ

به حتّى جاءت أبحاثُ المتأخّرين، فغلبت عليه تسميتُهم له بالفلسفة الاجتماعية.

وهكذا فالمقدّمة محاولةٌ نقدٍ تاريخي، وثورةٌ على المؤرِّخين القدماء. وكان همُّهُ أن يصلَ إلى قواعد ثابتة للتمييز بين الخطأ والصواب بالأخبار، وإلى الوقوف على آلةٍ تساعد على معرفة الحوادث بدقّة وضبط.

* * *

وفي المقدمة ناحية هامة هي الناحية الاجتماعية. وهي محاولة لتعليل الظاهرات الاجتماعية، فالمجتمعات موجودة ولا بد من البحث في: نشأتها - طرق معاشها - اختلافها - أثر السكن -أثر الجغرافيا والاقتصاد. ودرس نشأة الظاهرات الاقتصادية مع محاولة التعليل لبعض الظاهرات والقوانين التي تسيّرها الاجتماعات. إلاّ أنّه لم يستفد من القوانين التي صاغها بسرده للتاريخ (!). والتاريخ في نظره هو إيرادُ حقيقةِ ماجرى وتفسيره. إنّ ابنَ خلدون في مقدّمته يتعدّى نطاقَ الاجتماع الحديث ويتعدّى نطاقَ علم التاريخ ليصلَ إلى فلسفةِ التاريخ، ذلك لأنّه يذكرُ الأحوالَ العامّةَ للأجيال والعصور ولا يكتفي بعصرٍ أو جيل. إنّه لم يدرس أسسَ الحكم وتنظيمه وإنّما درس ظاهرةَ تعاقب هذه الأحوال وأسبابها. إنّه لايؤمنُ

إلاّ بالأسباب الطبيعية لتعليل الحوادث، ولا يؤمن بتدخّل الإنسان وفرديّته. هذا كان مضمون المقدّمة مع الكتاب الأول من التاريخ الذي ضمّ طبيعة العمران وما يعرض فيها من البدو والحضر والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ... وقد جعل ابن خلدون كلّ ذلك في ستة فصول وابواب (في العمران البشري- البدوي- الدولة والخلافة - العمران الحضري- الصنائع والمعاش - والعلوم واكتسابها).

أما عن فلسفة ابن خلدون، فقد اطّلع ابنُ خلدون على كل مايقترب من موضوعه عند الفارابي وابن سينا وغيرهما، بالإضافة إلى معلوماته وخبراته وتأمّلاته. وعندما اضطربت الأحوال في عصر ابن خلدون واهتزت البلاد الأندلسية والمغربية من أطرافها إلى أطرافها كتب مقدمته الضخمة. وقد أدّت الدروس الاجتماعية لابن خلدون إلى التسليم بالأمور التالية :

الإنسان مدنيٌّ بالطبع، فالاجتماع ضرورة له، والاجتماع وليد حاجة الإنسان للغذاء. وحاجة الإنسان للدفاع عن نفسه. لذا فهو بحاجة ماسّة إلى التعاون.

والاجتماعات تنشأ وتنمو وتنحلّ نتيجةً لقوانين ثابتة أكثر مايؤثّر فيها البيئة الطبيعية والمناخ والإنتاج والاقتصاد،

أكثر من تأثير الظاهرات السياسية المتقلّبة. وإذا تم الإجماع كان لابدّ للبشر من وازع يدفعهم عن بعض، ذلك لأنّهم مفطورون على الشرّ والظلم والعدوان. فالمُلكُ خاصّةٌ طبيعيّة للإنسان، والمُلك سلطانٌ يؤخَذ ولا يوهب وهو يكون بالغَلَبة. وقِوامُهُ العصبيّة التي تحفظها الحياة البدوية، والبداوة طَور طبيعي يتقدّم طَورَ الحضارة. والجماعات تترتّب بحسب طرق إنتاجها، واختلاف الأجيال في أحوالهم إنّما هو باختلاف نَحلتهم في المعاش، فإن اجتماعَهم هو التعاون على تحصيله.

ويردّ ابنَ خلدون تطوّرَ الاجتماع البشري إلى أساس اقتصادي، فالمجتمعات تدرّجت من البساطة إلى التعقيد حسب الطريقة التي كانت تستغل بها ثروات البيئة، وأوّل المجتمعات البشريّة هي المجتمعات البدوية المتخلّفة غير المتحضّرة وذلك لأنه يرى أن الزراعة هي أقدم الحرف وأبسطها. ثم تأتي مرحلة الرعي التي تتطلّب وعياً أعلى، تقوم على استئناس الإنسان للحيوان لا قتله. ثم مرحلة الصناعة.

ولكلّ مرحلةٍ خصائصُها الأخلاقيّة، فالبدو أقرب إلى الشجاعة والتضامن والعصبية والأخلاق الحميدة، والحضر أقرب إلى الرفاهية وأبعد عن الأخلاق.

كما علّق، على تأثير المناخ والأقاليم علـــى المنتَجــات الطبيعية. وآراؤه السياسية تستند إلى ملاحظـــات اقتصاديـــة، فالشعوب ذات الأراضي القاحلة تغزو سكان المدن المترَفـــة. وحين يكثر السكان يبدأ الانحطاط. وهو حين يربط السياســـة بالاقتصاد يتحدّث عن الأطوار الاقتصادية للدولة ودورها في إحداث التطور الاجتماعي والتغيير السياســـي إلـــى جـــانب تأكيداته على الدور المعنوي في التماسك والتقدّم الإجتمـــاعي والسياسي. وقد جعـــل العصبية الأساس الأول الـــذي يقـــوم عليه الاجتماع الإنساني، وهي أساس القوة والشّوكة والتغلُّب والرياسة والمُلك.

* * *

يرى ابن خلدون في مقدّمته أنّ للدولة أعماراً طبيعيـــة كما للإنسان، لكنّ الدولة – في الغالب– لاتعدو أعمارَ ثلاثـــةِ أجيال:

الجيلُ الأول، بداوة وخشونة وبساطة وعصبية ورهبـــة وغَلَبة.

الجيلُ الثاني، ينفردُ صاحبُ السلطان بـــالحكم بعـــد أن يتخلّص ممن اشتركوا معه في تأسيس دولته.

الجيل الثالث، ينسى عهدَ البـــداوة والخشونـــة، ويفقــد العصبية والمقاومة ويستنجد بغيره، بعــد أن تســود الراحــة والطمأنينة، وينتشر التَرَف والبذخ.

وتذهب الدولة في الجيل الرابع بما حملت.

إن تفصيل آرائه في الاجتماع تقسم إلى :

أوّلاً – علم الاجتماع العام الاقتصادي: حيث يبني آراءه على كون المجتمع ظاهرة طبيعية أساسها التعاون الاقتصادي الذي يقوّي نتائجَهُ تقسيمُ العمل، يُضاف إليه عــاملٌ دفــاعيّ، وإذا تمّ الاجتماع فلا بدّ من وازع وهذا هو معنى المُلك وهو خاصّة طبيعية للإنسان. بالإضافة إلــــى تــأثير الظـــاهرات الاقتصادية، هناك المنتجات الطبيعية والمناخ والإقليـــم إلـــى غير ماهنالك ممّا ورد سابقاً .

ثانياً – علم النفس الاجتماعي: إنّ نفسيّة الفرد تكوّنُـــها التربية وتثبّتها العادة، لا الوراثة، فالعادة طبيعة ثانيـــة تحـــلّ محلّ الطبيعة الأولى. فإذا كان الأمر كذلك فإنّ جملة الأحوال المادية للأمة هي التي تتضافر على تكوين عقليّة الشعب.

ثالثاً – علم النفس السياسي: عندما يتمدّن شعب يظـــهر منهم سلطة سياسية، والقوة أساس السلطان، فلا يقوم ملك إلاّ

بالثورات وانتصار القوي على الضعيف، ونشوء الدول لايتم إلاّ على سواعد القبائل.

وهكذا فكل دولة تقوم على العنف الذي هو حالة طبيعية للإنسان، ولا تقوم سلطة على تعاقد، والتغلّب المُلكــي غايـةُ العصبيّة، وإذا بلغت العصبية إلى غايتها حصل للقبيلة المُلك، إمّا بالاستبداد أو بالمظاهرة.

إذن إمّا الحياة البدوية المتوحّشة، وإمّا الخضوع لسلطان مطلّق؛ أما إمكان قيام سلطة على أسس عقلية فهذا مايرفضه ابن خلدون.

بحث ابن خلدون في الوقـــائع التاريخيـــة محـــاولاً أن يكتشف العوامل التي تسيّرها، والقوانين العامّة التــي تســيّر الشعوب في تطوّرها. وقد هدف لإيجاد معيار صحيح يتحرّى به المؤرّخون الصدق في نقلهم للأخبار، لذلك وضع المقدّمة.

وإذا حاولنا استقصاء موقع ابن خلدون الفكري، نجد أنّه قد قرن العمل إلى الفكر وكان موضوعياً في مقدمته بعيداً عن التحيّز. إلاّ أنّه كان متشائماً، وقـــد اتُّـــهم بخياناتِـــه الدينيـــة المتتابعة. وهو السابق إلى القول بالتقليد والمحاكـــاة وســـبق دور كهايم إلى القول بالقسر الاجتماعي.

وقد بحث هو، وفيكو، عن مبادئ عامة ونظريات في تاريخ الأمم، الأوّل في تاريخ العرب والإسلام، والثّاني في تاريخ الرومان واليونان.

وتشابه مع ميكافيلي بمعالجة أمور السلطة وأسباب نهوض الدولة وسقوطها واعتمادها على مبدأ (الغاية تبرّر الوسيلة) كما يشابه روسو في إيمانه بالتقشّف وأنّ حياة الترف والمدن تفسد الأخلاق، إلاّ أن روسو انطلق من أنّ البداوة عاطفة رقيقة، أمّا ابن خلدون فيرى أن حب الحرب والغزو هي أبرز شيم البدوي.

وأخيراً هناك بعض الشبه بين ابن خلدون ونيتشه حول أنّ شرط العمران هو خضوع البدو الأكبر لقبضة جماعة من ذوي البطش. هذا هو ابن خلدون رائد علم الاجتماع وفلسفة التاريخ في العالم.

* * *

ملاحظــة :

المصادر والمراجع التي عدنا إليها، كثيرة جداً، ممّـــا يجعل من المتعذّر إيرادها في ثبت يضم عناوينها. إنّها مئات الكتب والموسوعات، وهي حصيلة خمس وعشرين سنة من القراءة الدؤوبة. ولهذا نحن مدينون لكلّ كاتب جـــادّ أنجـز مؤلَّفاً يتعلَّق بتأريخ الفكر والحضارة. والفضل في إمكانيّـــة إعداد الكتاب، إنّما يعود إليهم جميعاً. أمّا ثمراته فهي فضل يجود به القارئ الذي تدفعه فضيلة المعرفة إلى مزيد مـــن البحث والاطّلاع، رغبة منه في المساهمة بتغيير العالم نحو الأفضل.

انتهى الجزء الأول من موسوعة الحضارة الإنسانية، ويليه الجزء الثاني قريباً، بإذن الله .

المحتـــوى

رقم الصفحة



كتب المؤلف

المثقف وديمقراطية العبيد	مقالات
حالات سرّية	قصص قصيرة
صقيل الأدمغة	ندوات
مساهمات كلامية	محاضرات

مخطوطات

رويدا أيتها الغابة	شعر
الطاعون	شعر
والويل بيروت	شعر
رابعة العدوية / من الحكاية إلى التكفير/	دراسة
قضايا معاصرة	قراءات نقدية

للمؤلف

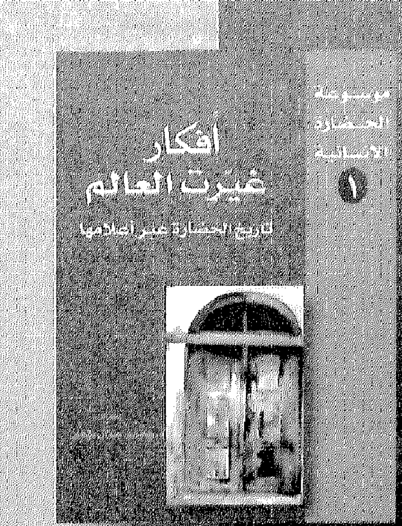
مطبوع

عشرة زمن يا أم	شعر دار الثقافة	1985
الاستبداد وبدائله في فكر الكواكبي	دراسة اتحاد الكتاب العرب	1992
مشاغبات فكرية	مقالات	1994
الأعمال الكاملة	دراسة وتحقيق	
الكواكبي	مركز دراسات الوحدة العربية	1995
على هامش التجديد	دراسة	1996
هكذا تكلمت حورية	مقالات قصيرة	1997
شرفات الجمر (بالاشتراك)	شعر	1998
الحاضر غائبا	مقولة	2000









هذا الكتاب

يرصد الكتاب أهمّ الأفكار والنظريات العلمية والأدبية والفنية التي لعبت دوراً رئيسياً في تغيير نظرتنا إلى العالم أو في تغيير أسلوبنا في التعامل معه.

إنه كتاب يؤرّخ للحضارة عبر أعلامها، بأسلوب شائق لا يخلو من طرافة وتبسيط. ولعلّنا نستخلص من طريقة إعداد الكتاب وتسلسله التاريخي أن الأفكار العظيمة مكتسبات إنسانية عامة وليست ملكاً لمنتجيها فقط.

إنه كتاب لا يملّه المتخصّصون، ولا غنى عنه للثقافة العامة لمختلف الأجيال، وللذين يرغبون بالإسهام في تغيير عالمنا نحو الأفضل.

الناشر